السيد حافظ

وجوه في الليالي الضائعة

قصص قصيرة



الكتاب : وجوه في الليالي الضائعة

قصص قصيرة

الكاتب : السيـــد حافــظ

الناشر : مركـز الحضـــارة العربيـــة

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٣

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/ ٨٥٧٦
الترقيم الدولي : I.S.B.N.977-291-459-x

الغلاف
لوحـــة الغـــلاف } للفنان محمد عمر
تصميم وجرافيك

الجمع والصف الإلكتروني :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : صفـــاء الشـــريف
تصحيح : زكريـــا منتـــصر

كتبت هذه القصص في عشرين عامًا متفرّقة ونشرت متفرّقة ، وهذه هي الطبعة الأولى التي تجمعها .

عنوان المؤلف :
١٢ شارع طارق يحيى عبد الغني
التعاون - الهرم - الجيزة - مصر .

موبايل : ٠١٢٧٣٧٤٥٧٣ (٠٠٢)
تليفاكس : ٣٨٦٨٦٥٧
Email:elsayedhafez@hotmail.com
elsayedhafez2000@yahoo.com

وجوه في الليالي الضائعة



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

تليفاكس : 3448368 (00202)

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

وجوه في الليالي الضائعة

على بعد عشر خطوات سوف يلتقي بصديق الفكرة «عمر شهاب». منذ عشر سنوات لم يلتقيا ، وأخيراً سمع صوته الحاد الجاد في الهاتف سائلاً عنه :

- توفيق إبراهيم ؟
- نعم .
- أريد أن أقابلك .
- من أنت ؟
- عمر شهاب .

لم يصدّق أذنيه للوهلة الأولى ، انغمست عيناه في دائرة الصوت في الساحة العامة ، بدأ يسير حتى دخل من منعطف ضيق في شوارع حي الحسين ، صفعته نسمات الهواء العاصفة لفصل الشتاء . تردّد برهة ثم اندفع مسرعًا داخل المقهى الذي اتفق مع عمر شهاب على أن يقابله فيه . .

تقهقهر الزمن عشر سنوات . . قذفت بين خواطره أناشيد جوع الفقراء والأرض والأكواخ والإنسان وقحط الأيام الكسيحة ، منذ أن كانا في . . . . .

نظر داخل المقهى ، لمح صاحب المقهى . . لم يدخل هذا المقهى منذ عشر سنوات ، ها هو صاحب المقهى قد كبر في العمر وصار لا يحييه. ها قد مرت السنوات متبرِّمة من الأوضاع . . مر عليه بائعو الأقلام والمسابح والروائح والمصاحف - بركة الحسين .

(منع مجلة الوطن العربي من الدخول إلى مصر لنشرها خبر مقابلة إسماعيل فهمي مع موشي دايان).

- دخل المقهى شاب نحيل الجسد متجهّم الملامح وتصفّح وجوه الحاضرين .. وجوه الليالي الضائعة. نظر إلى توفيق .. نظرا كلاهما واندفعا بالعناق .. مضغا الشوق العارم. صار كل منهما في الأربعين من العمر. نظر توفيق إلى عمر.

- صار شعرك أبيض.

- وأنت الآخر صارت ملامح الأربعين على وجهك.

(السادات يعلن أنه على استعداد للسفر إلى إسرائيل).

نظر توفيق إليه ..

- إنني مثل الشرخ في جدار الزمن. لقد عشت عمري ضائعًا بين الزواج وبين الحب.

- نعم!

- إنني أحب يا عمر بجنون ..

- زوجتك؟

- لا.

- من؟!

- امرأة أخرى.

- تزوجها.

- لا أستطيع.

- لماذا؟!

- لأنها متزوجة.

- تحب امرأة متزوجة وأنت متزوج؟!!

- نعم.

- كيف؟

– لا أدري . . لقد تعلّقت بي فجأة وتعلّقت بها فجأة .

– إنه لا يسمى حبًا ؛ بل يسمى أي شيء آخر . . وزوجتك !

– لا تعلم ولا أستطيع أن أناقشها . .

– وزوجها ؟!

– لا يعلم ولا تستطيع مناقشته .

اخترق وعيه فجأة الحديث . نظر إلى صديقه عمر شهاب . . وجد حرّاس الجهل يسيرون في مواكب وشرطة سرية وعلنية وقضبان وقفص . .

– وماذا عنك يا عمر شهاب ؟

– لا شيء . . خرجت من السجن بعد عشر سنوات وحين جئت وجدتك تعيش قصة حب سخيفة .

نظر إلى الجرسون وطلب منه أن يعد له (شيشة) .

تحرّك صاحب المقهى وهو يتشبّه على الرجلين ويتفحّص كلاً منهما . .

– أستاذ عمر ؟!

قام عمر واحتضنه الرجل طويلاً .

– ازيّك يا أستاذ عمر . . يا بتاع الوطنية والناس . . انت خرجت إمتى ؟

– اليوم .

– كان نفسي أشوفك يا أستاذ من زمان والله .

نظر إلى توفيق :

– الله ! والأستاذ توفيق معاك . . يا أهلاً وسهلاً . . منذ وقت طويل لم أرك يا أستاذ توفيق . .

صمت توفيق . . غاص شعره الأبيض في صدر حبيبته المتزوجة وعيون زوجته التي تتهَمه بالخيانة وعيون حبيبته الحزينة من أجل هذا الحب المفاجئ .

عاد الصمت إلى الرجلين . أشعل عمر سيجارة على نهد الجدران المتآكلة .. ولدت زوجته ابنه طلال . كانت هدى ضائعة بين الزوج وبين الابن .. بين الحب والأمومة ، بين شارعين، بين مدينتين .. ولذا قررت بعد أن دخل عمر السجن أن تطلب الطلاق بعد سبع سنوات .. سبع سنوات عجاف . أحضر الجرسون الشيشة .. ألقى عمر السيجارة على الأرض ..

وبين فخذ النساء كان توفيق يضيع، وبين فخذ المأساة كان عمر يضيع ، جمعتهما لحظة المعاناة .. حفنة مأفونة من الرجال المطحونين أرادوا أن يغيروا وجه العالم ولكن الصوت الصافي صار صلبًا .

قال عمر وهو يسحب نفسًا طويلاً من الشيشة :

– لقد صار لك كرش .

– البطن المنتفخ نتيجة شرب المياه .

نامت في عيون توفيق حبيبته .. نام هو الآخر على بئر المخاوف من زوجها الذي قد يقتله أو من زوجته التي بدأت تستعد لهذا . نظر إلى عمر صائحًا :

– ماذا أفعل ؟

قال عمر وهو يدخّن الشيشة :

– اذهب إلى الجحيم .

شعر بالخجل وقال :

– وماذا ستفعل أنت ؟

– الأشياء كلها مستلقية مسترخية على شواطئ الزمن وعلي أن أبدأ من جديد ..

– ومن أين ستعيش ؟

– الساعة المنحوسة ستزول والزمن الفاعل سيستيقظ وإذا كانت القاعدة الآن هي الاستثناء والاستثناء قاعدة فـ .....

صرخ توفيق :

- لا تعطني نصائح ، لا تخطب فيّ .. كفاني ما أنا فيه ، لست ثوريًا فالثورة مكروه اليوم .. كل صامت عظيم وكل جبان شريف وكل كاذب هائل ، سأدعك لما أنت فيه وستموت جائعًا .

خرج من المقهى يجري .

قام كل الزبائن . ألصق عينه على الشيشة وصاحب المقهى ينظر له عند مغادرته المقهى . استغرب من نفسه ، نظر في المرآة .. حاول أن يدفع الحساب إلاَّ أن صاحب المقهى أصر على عدم دفعه المال .

(بيان) عمر شهاب حاول أن يكتب بيانًا يحتج فيه على زيارة السادات لإسرائيل . قبض عليه البوليس بينما كانت زوجة توفيق تصرخ لتجمع سكان البيت حيث إن توفيق أحضر حبيبته ليضاجعها في المنزل في أثناء غياب زوجته ..

(إعلان) تأجل التحقيق في الفضيحة الأخلاقية لتوفيق إبراهيم نظرًا لانشغال رجال الأمن بالمحافظة على الأمن في الإسماعيلية .

(كاريكاتير) فشل مؤتمر الإسماعيلية وأجرت النيابة التحقيق مع عمر شهاب بتهمة الخيانة العظمى والتحريض .

خرج عمر شهاب الضرير متجهًا إلى قصر رئاسة الجمهورية ليطالب بالإفراج عن ابنه بينما مظاهرات كبرى من الحزب الحاكم لتأييد خطوات الرئيس .. يسقط عمر تحت أقدام أعضاء الحزب ويدوسون عليه !!

صرخت هدى في وجه أمها : لقد خرج من السجن ودخل مرة أخرى ، إنه نظيف وأنا القذرة ، لقد تركته في معركته بمفرده بينما هو لم يتركنا حتى بعد أن عذبوه كل هذا العذاب ..

ألم يحن الوقت الذي تبدعون فيه ؟!!!

حبيبتي ليلى ..

بعد منتصف الليل .. والغرفة التي أجلس فيها ، جلست جدرانها أمامي تتأمّلني .. أغوص في آخر سطور الخفاء كي أكتب لك ، أستجمع عمري من شواطئ الأمان .. صاعدًا هضبة الشطوط ، مملح الأفكار حاملاً على قدميّ مسيرة عمر بن الخطاب .. أبحث في عيون الناس عن إدانة هيروشيما ، فاتحًا ذراعيّ أحتضن هواء الحقول الكادحة . يا حبيبتي .. اليوم قرأت أشعار محمود درويش وسميح القاسم وجلست طويلاً أتفحّص هذه الأشعار وأغتسل من أفكاري التي لوثتها الكتب الدنيئة التي تحمل الزيف والرياء . تسكعت أكثر من ثلاث ساعات في شوارع الإسكندرية ، ووقفت في ميدان محطة الرمل لأرى آخر الكتب التي صدرت في السوق الأدبي .. تذكّرتك وأنت تقولين لي : ماذا تقرأ ؟ تذكرتك وأنت لم تفهمي الكتاب الذي أعطيتك إياه تقرئينه .. ابتسمت للبائع لأني لم أجد أي كتاب يثير الاهتمام ..

ملحوظة بين قوسين .. لقد شاهدت فتاة رائعة تمر عليّ نظرت إليها ، وغمزت بعيني .. سامحيني : قابلني صديق قديم بعدها مباشرة وتحدّث معي حول أزمة الشرق الأوسط حديثًا طويلاً .. كنت أشعر أنه «مباحث» دائمًا يسألني : ما رأيك ؟!

لا مؤاخذة هذا مجرّد إحساس .. كنت أشعر بالغثيان - لو تسمحي .. سأقوم لأجهز كوب شاي لي وأشعل سيجارة بلمونت .

آسف .. أعود للكتابة لك مرة ثانية : أمامي كوب شاي رائع ،

وأشعلت السيجارة ، ورشفت رشفة ، وأخذت نفسًا عميقًا من السيجارة.

رائعتي العظيمة ليلى..

دخلت اليوم فيلمًا اسمه «لا شيء يهم» . خرجت من السينما .. تقيأت في ميدان محطة الرمل من غثاثة الفيلم ، وشربت كوبًا من الليمون وجلست على سور البحر أغسل رئتيّ وعينيّ من تلك الأفكار والمناظر المؤذية .. يغسلني البحر وأتوه في الأمواج راحلاً بين الأمواج مثل سفينة النبيِّ نوح . ليته يأخذني معه بعيدًا .. رغم أني أحمل في رأسي طمي النيل ، رغم أني أرغب أن أترك كل الأشياء هنا .. أرغبك معي . إني أرى عينيك عيني نفرتيتي وقصيدة إخناتون فيهما .

في الهامش :

سامحيني يا ليلى ، لم أعد أعرف كيف أكتب الشعر .. خطابي هذا ليس إلاَّ نوعًا من الحوار المأزوم عن رحلتي في شريان بلادي ، عن رحلتي في قطار عينيك مخترقًا في شرياني النيل وصورة مجاعة الوجه القبلي في عهد الخديوي إسماعيل رغم أني أموت احتضارًا في عشق هؤلاء الذين يمارسون عبودية اليوم المهزوم للرغيف .. **(هذا السطر انتهى)** .

من أول السطر .. حدّثت أمي عنك ، عن قلقك وحبك لي .. حدّثت أبي .

هكذا شأن الفنانين فسامحيني .. لنبدأ رحلة خطوبتنا بعد عام أو بعد عامين .

الزواج شيء سهل يا ليلى ، لكن الأصعب منه هو الحب بمعنى أن يكون نقيًّا لا عصريًّا ، أزليًّا لا إلكترونيًّا ..

بعد هذا السطر السابق رشفت لك رشفتين من الشاي .. وأخذت نفسًا عميقًا ..

ليلـــي:

لقـد دفـعت لك ثـمن المشـروبات في الـكازينو المـرة الســابقـة والمرة القـادمة أرجـو أن تدفـعي الحسـاب أنت .. عن إذنك جـرس البـاب يدق سأقوم لأفتح الباب .

نعم . لقد عدت .. إنها الجارة .. خالتك أم محروس تريد أن تقترض كوبًا مليئـًا بالسكـر ، لقد انتهـى التموين منها كما تقـول والجمعيـة لا تستطيع أن تشتري منها سكرًا لأنها مزدحمة بالناس .. وتلعن الغلاء والسوق السـوداء . المهم الآن .. ما رأيك أن نلتقي المرة القادمة في مكان لطيف يسـمى «أرتينـاج» على البـحر ، عنـد محطة سـابا باشـا .. مكان هادئ نسـتطيع أن نتحدث فيـه . على فكرة .. لقـد أحضـرت لك ديوان شعر يسـمى «إلزا وعيون إلزا» لشاعر عظيم يسـمى آرجون .

يا حبيبتي:

إن الحب العميق بيننا لن ينتهي ولن يزول .. سنعبر سويًا فوق مدن الخوف والجوع والضيـاع والسجون ، ثـم نزرع في الغد سنبلة الشـروق لشمس المدن المقبلة ..

أنتظرك يوم الثلاثاء

الساعة الخامسة ..

لك قبلة من الأشجار والبحار والأنهار والنهار

يا أجمل قطة وأجمل زهرة وأجمل نجمة

وأحلى ليلى .

حبيبـــك

ســامي

الإسكندرية .. السبت ١٣ يونية - ١٩٧٥

حبيبي سامي:

سامحني ..

سامحني ..

سامحني ..

سامحني الأولى لأني أحبك ،

سامحني الثانية لأن ظروفي سيئة ،

سامحني الثالثة لأني لا أرغب في أن أفقدك .

إن ظروفي حرجة يا سامي . لم أستطع أن أخبرك في المرة السابقة .. إن أمي رأيها فيك أنك فقير ، لا تملك سيارة ، لا تستطيع أن تشتري لي تلفزيونًا أو ثلاجة أو .. سامحني في هذه الأقوال لكنها الحقيقة في نظر أمي . أعرف أنك ستقول إنها أشياء مهمة في المجتمع الاستهلاكي وإننا يجب أن نبني بيتنا بالحب وليس بهذه الأشياء . لكن المجتمع والواقع غير ذلك ، وإذا كنت لم تعرف هذا فأنت تضع رأسك بعيدًا عن واقعنا وحياتنا .. ماذا أستطيع أن أقول لأسرتي .. إنني أحبه .. إنني سأبني بيتي بالحب .. سنأكل سويًا الحنان . هذا أولاً ، ثانيًا : أخي يقول إن أشعارك لا يغنيها أي مطرب لأنها ثورية وغير مصرح بها رقابيًا .. ماذا ستنفع هذه الأشعار ؟! ستقول لي : الثورة في الغد وإن .... وإن ...

سامي:

أرجوك ألاّ تحزن من هذه الكلمات ، فأنت الذي علمتني الكثير ، فأنا أجلس في أي مجتمع أتحدّث بلباقة غريبة .. أحلّل المجتمع وظواهره ولن أنسى لك هذا أبدًا ، إنني أحفظ كلماتك «إن الفن عليه أن يغيّر الواقع .. أن يستوعب الحاضر وأن يغيره» كما أحفظ لك «أن المجتمع يصنعه الأحرار عندما يتسلّحون بالوعي» .. أعرف قاموسك .. الوعي ، الثورة ، الغد ، المستقبل ، الإنسان ، الحياة ، المجتمع ، العامل ،

الشرف ، الصدق ، الفلاح ، الأجر ، العلاقات الإنتاجية ، القيمة ، فائض القيمة .. أعرف فيك «عدل عمر بن الخطاب ، وأفعال يزيد بن معاوية ، ومقاومة أبي ذر الغفاري، چيفارا ، محمد علي» .

سامي دائمًا .. أبدًا ..

لم أحضر .. لأني قد خطبت لابن خالتي . سامحني .. فهو في نظر أسرتي له مستقبل ، مهندس ويعمل بعد الظهر في التجارة .. يفتح «بوتيك» ويبيع الأشياء المستوردة وله تاكسي وله سيارة خاصة .. ويسافر كثيرًا إلى الخارج وله فيلا في المعمورة . أعرف أنك ستبصق عليّ لكنه الواقع .

ألم تقل لي : علينا أن نغيّر الواقع .. ستقول : لا أقصد هذا الواقع . لكنه في نظر أهلي ؛ هذا هو الواقع .

تذكرتك وأنا في عربة الزفاف ، ونحن ندور حول أبي العباس في الأنفوشي ..

تذكرتك وأنت تمسك يدي وتشير إلى أبي العباس وتقول لي : عندما نتزوج سنتزوج في هذا الجامع، وسندعو القليل من الأصدقاء . وتذكرت عندما اشتريت لي الذرة والترمس وسرنا حتى الأنفوشي ..

أكتب لك بعد الساعة الثانية .. الجميع ناموا . لقد أمضيت معك أيامًا حلوة .. سأذكرها ، سأذكرها طوال حياتي .. وأنت تنتظرك ألف فتاة أجمل وأفضل مني .

يا أنبل من رأت عيني ..

يا أحب الناس لدي .

سامحني .. إنه قانون الزواج ، قانون العصر . لقد كافحت طويلاً أسرتي لكنني هزمت . أعرف أنك لا تقبل الهزيمة .. لكن ماذا أفعل ؟!

على فكرة . لقد رأيت اسمك في جريدة المساء ، لقد نشرت لك قصيدة رائعة .. مبروك .. سأتتبع أخبارك .

لقد كنت أظن عندما تنشر قصيدة لك ستهز الدنيا لكنني لم أر أي شيء يحدث .

سامحني أنا أحب الصراحة معك ..

سنسافر أنا ومحيي إلى القاهرة ومنها إلى بيروت لنشتري ثيابًا جديدة .. اسمه محيي. أرجوك مزّق خطاباتي ، وانس أيامي معك ، واذكرني إن ذكرتني بالخير ..

يا معبد مصر القديمة .. يا حلم النيل والفقراء .. يا مركبًا يسافر به ركاب .. يا وعيًا يسبق عصره .. يا شاعر الشعراء في عصر لا يهز فيه الشعر أمة تجهل القراءة والكتابة .. يا من تمضي عمرك قلقًا .. يا قلق مصر الدائم .. يا قلق مصر لغدها .. يا نهرها القادم في زمن الإعياء والجوع والمهانة ...

لكَ حبي ...

ووداعًا ..

حبيبتك

ليلى

١٩٧٥

الحلم

خرجت في الصباح أشم رائحة البحر ورائحة القهوة وأتحسّس دفء عيني حبيبتي فرحًا أردّد أغنية عشق قديمة .. صفعني المذياع عندما فتحته بالثرثرة ، أغلقته مدّدت الجسد ورحت في النوم قليلاً . أقوم في الغروب .. أدور في كل الدروب .. وعند بيت المحبوب أغني قصيدة .. اكتشفت أني في مدينة غريبة والحبيبة في مدينة بعيدة .

يااااه .. مازلت في الفراش وحيدًا .

.. انتهت ..

الشــوارع

عيناك شارعان ، ومنعطف جبلي ، وحديقة أطفال ، وصوتك الناعم يفجِّر في روحي مئات الأغنيات .. زمني هو قبلة من شفتيك ، وعندما يسير الحراس في الشوارع الليلية يفتشون عن الهوية . أجري يجرون خلفي .. يفتشونني وينزعون القميص من فوق صدري ثم يضحكون . يصرخ كبيرهم : انظروا ماذا كتب على جسده ؟!

أحبك يا مجنونة .

.. انتهت ..

قلــق

مع الليل والكتـاب يأتي القلق إلى جـواري وينام ممدّدًا في الفـراش ويرحل في الفجر ..

في الفجر أصوات عمال النظافة وعمال المهن الحسّاسة يتجهون بعربات تجرها الحمير والبغال إلى أماكن بعيدة ، تقتحم الشوارع .. تقتحمني.. وأراقبهم وهم يمرون بسعالهم القوي ونهيق الحمير . مع خيوط الفجر يصبح الحمار سيد الحارات وملك الشوارع وقائد المدن إلى الصباح ..

في الصباح يواجهني الحر والعرق وصحف تحمل أخبارًا مزعجة وشوارع مزدحمة ببشر تائهين تأكلهم الغيبوبة ، ومقهى مزدحم بأناس فقدوا الإحساس بالزمن حتى الظهيرة ..

في الظهيرة .. أحاول أن أنام .. يأتيني الناموس وصوت تلفزيون الجيران ومباراة كرة القدم بين الفريق فلان والفريق علان .

في الغروب.. البحر والناموس وحوارات سخيفة .. لا أحد يضحك فالوجوه حزينة . أسأل نفسي وأنا أعود إلى الليل مع القلق والكتاب : هل الابتسامة في زمننا جريمة ؟ ثم .....؟

تمت

القاهرة ١٩٨٧

أشياء لا تحلم بالهجرة

آآه

تعـود كـما خـرجـت .. وتخلـع نعليك .. إنك بالـوادي المقدّس طوى. هذه أرضك يا محـمـد فـاروق تزرع فيـها القـمـح والورد والأمل ، وتحـصـد أشـجـار الـشـر المنتـشـرة في الوادي وتحـمـل مزمـار الأنـبيـاء وتغني مـزامـير اليـقـظة . أخـذت المركـب تقـتـرب من أحـضـان الـشـاطئ .. كـانـت مـريم بملابسهـا البـيـضـاء تقف على الشـاطئ وحـيـدة ، والكوخ الخشـبي البني اللون قد تغيّر لونه وأصابته الكهولة . أخذ يلوح محـمـد فـاروق بيـديه صـارخـاً : يا مـريم يا بـنـت يعقـوب يا أخـت يوسـف وابنـة عـم آتـون .. يـا رفـيـقـة عـمـري .. يـا مريم هـأنذا قـد عـدت ومـعي المنجل العـجـيـب ، والمزمـار الحـبـيب الذي أعطيتني إياه كي أغنّي في ليـالي العشق الأبديّ . يلوح بيديه ومريم تلوح في هدوء وتجري على الشاطئ كأنها ترقص رقصة النـزيف .. رمي الـهلب .. وقف المركـب .. نزل يجـري وفي يده اليـمـنى المنجل وفي يده اليسرى مزماره القديم : تعالي احضنيني بعنف .. قبّليني من جبيني لعلي أمسح شوق الأيام ويبارك لنا الله في غلام أسمر عاشق للأرض والإنسـان . ارتمت في أحضانه .. بكت .. أغمى عليـهـا حـملهـا وأخذ يسـير نحـو الكوخ وشـجـيـرات اليـاسـمين والجبل الأخـضـر خلف الكوخ والسهل البعيد يحيونه. أخذ يقترب .. تُرى ماذا حدث في أثناء غيابي كل هذه السنوات في الجزيرة ؟ كيف حالك يا مريم ؟ جئت ؟ نعم جئت كي نحصد أشجار الشر المنتشرة في الوادي ونزرع القمح وننجب ابننا «المصطفى» يغيّر وجه الدنيا وينشر رسالة الأرض الطيبة ويفتح المدن

البيضاء بالحب والسيف والقلم. بكت.. نظر في عينيها.. قرأ تاريخ أيام غيابه كلها في صمت الشفتين ودمعة مختنقة في العينين. خرج غير مصدّق، حاملاً معه المنجل العجيب ليحصد مائة شجرة من أشجار الشر.. مائة شجرة احتاجت لمنجل عجيب يقتلعها من الجذور، ذهب ليحضر المنجل العجيب من هناك. غاب عامًا؛ كان المنجل غاليًا.. في المدينة البعيدة كل شيء مرتفع الثمن.. مضت الأعوام: عام.. ثم عامان.. ثم ثلاثة.. ثم أربعة.. ثم خمسة، وفي النهاية مضت السنوات الست عشرة. وأخيراً عاد ومعه المنجل العجيب.. المنجل الحلم.. وقف أمام الأشجار: ما هذا؟! مليون شجرة خشخاش!! تركتها مائة!!

اقترب.. وجد لافتة كبيرة: «انتبه.. لا تقترب». نظر.. وجد خلف شجرة خشخاش بندقية مصوّبة إليه. جرى إلى غرب الجزيرة.. وجد أهل الجزيرة يسبّحون بالصلوات.. صرخ في أذنهم.. وقف أمامهم لكن لم يسمعه أحد، فصوت التسابيح أعلى من كل الأصوات. جرى إلى شمال الجزيرة.. وجد صفارات وآلات وناسًا يتحدّثون بكل اللغات إلاّ لغته القديمة.

في المساء، جلس أمام مريم، «لم يحدث» كل منهما الآخر، ودون كلام جمع كل ما في الكوخ من الأشياء وألقى بالمنجل والمزمار وحمل مريم في عربة وخرج إلى الشاطئ ليأخذ مركبته ويهاجر.. فوجد أن مركبته قد ملئت بأشجار الخشخاش وتسير نحو البحر مع رجال لا يعرفهم أو ربما يعرفهم وينساهم. صرخ بأعلى صوته: آه.. إلى أين تمضون يا أولاد الـ.. جرى إلى الكوخ وأخذ المنجل وتوجّه إلى أشجار الخشخاش وبدأ يقطع الأشجار وتنهال عليه الرصاصات. حضر الأجانب جنازته من باب المجاملة وصلى عليه الناس الطيبون في تسابيح كثيرة.. بينما مريم تتحسّس بطنها وتسأل نفسها:

«هل سيأتي المصطفى» ليرث منجل أبيه؟

القاهرة ١٩٨٧

نرجس الصباح

سمئت الرحيل من مدن العفن إلى مدن الزيف .. هأنذا ألتقيه .. بنفسي في صباح يوم دافئ الأحاسيس .. وقد عبرت الزمن المجمد داخلي وسوف أقابلها .

كنت خائفًا وأنا أتوجه نحو قريتي بعد غياب طويل ..

- أنت !

- نرجس !!

«صوتها المبحوح .. عيناها منطفئتان .. تتنهّد كأنها خرجت من عنف حادث ما أو ربما صدمت عندما شاهدتني ، ها أنت قد عدت من رحلتك ...» .

- زيارة .

«عندما كانت نرجس تهل على الحقول كان النسيم يلفح كل الاخضرار وتضيء بعينيها كل مكان تسير فيه . نرجس قصيدة الصباح .. نرجس الشاي الدافئ في يوم بارد .. كل يوم تحمل إضاءة جديدة . رأيت في عينيها أحلام العذارى وصوت السنين المجروحة التي تئن في ضلوع آدم .. يتبعه الأبوان ، تسكن مع عمتها . نرجس حكاية» .

في كل عنفوان الأيام كنت أراها السكينة .. الهدوء . كنت أحس أنها خلقت من أجلي .

نظرت في وجهي :

- هل تزوجت ؟

– لا بل جئت من أجل هذا .

نظرت إلى بعينيها نظرة عتاب موجعة .. لا تنظري لي هكذا .

– أنا متعب .. جئت من بلاد لا تعرف إلاّ التعب والكد والعمل وجمعت مهرك .

– نعم يا نرجس ..

هأنذا أمامك فقدت حماسي الأول ..

حلمي الأول ..

لوني الأول ...

«آه يا ابنة الحقول الفسيحة لو تدرين ما فعلت عيناك بي .. في دروب قاسية العطاء قاصرة التصوّر .. آه لو تدرين لبكيت من أجلي الأيام والليالي .. آه لو تدرين كيف أمضيت الأيام والليالي جائعاً .. غريباً .. عارياً .. غيّرتني تلك الأيام الغريبة» .

أنا الغريب ..

أتيت إلى دربك خذيني يا نرجس ..

ضميني بين ذراعيك ..

أو قولي كلمة عتاب ..

لم أكتب لك لأنني لا أعرف القراءة والكتابة .

طارت الدنيا بنا وافترقنا .. حولتنا الليالي إلى غريبين .. أنا متعب وأنت حزينة العينين.

انظري إلى جفوني لقد اختفت منها الدعة ..

ففي الغربة نفقد الدعة من أجل المال ونفقد المودة بيننا من أجل الوظيفة ويكبر العيب فينا ونفقد زمن الحب والشوق والإضاءة .. تصبح الأشياء النبيلة القديمة ذكرى .

قالت وهي تنظر لي وأنا أقف أمامها جامداً :

لقد تغيّرت كثيراً .

- وأنت ..

«لم يحمني أحد من الوحدة والغربة وطفولتنا الأولى تحمل شجرة حبنا .. هل أصبحنا غريبين إلى هذا الحد ؟! لم يعد بيني وبينك أي حوار».

أحلف لك بتراب الأرض والحارة والحقل والجيرة والسفر والخندق وصوت الحنين في ليالي الغربة ..

أني عدت إليك بالمهر وكل جديد ..

هاأناذا أتيت إليك في إجازة العيد .. كي نتزوّج يا نرجس .

- خمس سنوات يا محمود في الغربة ..

- نعم يا نرجس .. العام الأول سدّدت الدين ، والعام الثاني سدّدت تذاكر السفر ، والعام الثالث وفّرت خلو رجل الشقة التي تحلمين بها في المنصورة بعيداً عن قريتنا ، في العام الرابع جهّزت ثمن السيارة ، في العام الخامس هأنذا أمامك .

رجل .. رجلان .. ثلاثة .. أربعة .. ازدحموا ، صافحوه ..

خجلت نرجس .. اختفت في الزحام .

«في المساء جاءت أمه بالطعام إليه .. نظرة أبيه له نظرة حب وشوق دفين . أخذت أمه تثرثر عن القرية .. عن أم محمد وابنها محمد الذي سافر إلى أوربا وعاد خائباً فذهب إلى الإسكندرية وعمل في الجمرك وأصبح الآن مليونيراً .. عن حسن أبو عطوة منادي السيارات في المنصورة الذي أصبح من كبار التجّار وعنده عشر سيارات .. عن إبراهيم العجل الجزار الذي تحوّل إلى صاحب أكبر مزرعة في القرية» .

ضحك .. كل هذا حدث يا أمي خلال تلك السنوات ؟!

ضحك أبي وهو يشد الشيشة .

- نعم يا ولدي حدث الكثير ونحن نعقد الأمل عليك .. لم ترسل لنا حتى نطمئن عليك .. وفي كل عيد كانت تصل لنا الهدايا .

كل عيد وأنت طيبة .
تفجّرت ضحكة الأم ووصلت سقف الدار .
تغيّرت القرية .. تغيّرت المنصورة .. تغيّرت مصر !
قال الأب :
– هل ستعود إلى الخارج ؟
– نعم يا أبي أمضيت خمس سنوات في الخارج .. تعبت .
انفجر الأب والأم في الضحك ..
قال الأب :
– كم سنة ؟
– خمساً ..
قالت الأم وهي تضحك :
– إنه يمزح .
وقف وسط الحجرة ..
– ما الذي يضحككم ؟!
قال الأب :
– قولك خمس سنوات !!
– نعم !
قالت الأم :
– يا بني إنها عشر سنوات ؛ خرجت من هنا في ١٩٧٠ وعدت إلينا عام ١٩٨٠ .. نحن في عام ١٩٨٠ .
دارت الأرض دورة .. دورتين .. آه يا عمري الضائع .
قالت أمي :
– تزوجت هناك ؟
– لا يا أمي .. لقد عدت للزواج وأحقّق أحلامي وأعود .
– اختر أية فتاة في القرية .. نحن جاهزون .. مستعدون .

– نرجس .
نظرت أمي إلى أبي .. نظر أبي إلى سقف الحجرة .
– ماذا حدث ؟ هل تزوجت ؟! هل حدث شيء ؟
قالت أمي وهي تقلّب الشاي :
– نرجس ؟!
– نعم لقد قابلتها هذا الصباح وتحدّثنا ..
نظرت أمي وهي تصرخ في وجهي :
– تكلم كلامًا معقولاً ..
قال أبي :
– أنت قابلت نرجس ؟
– صباحًا عند وصولي إلى القرية .
هب أبي واقفًا ..
– أنت لا تعي .. تقول أمضيت خمس سنوات في الخارج والسنوات عشر والآن تقول إنك قابلت نرجس !!
– نعم .
نرجس ماتت منذ خمس سنوات .. تزوجت وماتت في أثناء الوضع هي والطفلة التي أنجبتها .
في البلاد الغريبة ..
في البلاد البعيدة ..
عن قرية ديكرنس – عن محافظة الدقهلية – عن مصر .
كتبت جريدة الأحلام أن السيدة – في صفحة الحوادث في العمود السابع ... السطر العاشر –
حوادث ٧ / ١ / ١٩٨٠
– وقع في البلد أمس حادث مرور نتج عنه حالة دهس واحدة لمواطن لا يحمل هوية ..

كتب على ذراعه : محمود - نرجس ، فمن يتعرّف على شخصيته أو عمله يتصل بأقرب مخفر شرطة .

- في صفحة الإعلانات المبوبة في نفس الجريدة ١٥ / ١ / ١٩٨٠ نشرت صورة وفوقها إعلان «خرج ولم يعد» محمود سالم ، ويحمل جواز سفر رقم ٢٢٢٢ مصري الجنسية فمن يجده أو يستدل عليه يتحمل كافة المسئولية القانونية .. فمن يجده أو يتعرّف عليه يتصل بتليفون ٣٣٣٣٣ .

حكايات من الشاطئ

الطوفان :

طفح القلب نشيداً بريًا فوق أرصفة الجوع الحبلى بالأغاني الخاسرة . لم يعد في النوايا الخبيثة خير .. مالت (وردة) على كتف (علي محمود) ، (علي) رقص في احتفالات باخوس والإسكندر وغنى بين يدي الأميرة شهرزاد أغنية ملحية علقها في صدر الأذن المفتوحة بالفضيحة .. سألته وردة : ما رأيك في كلام أمي ؟ علّق علي محمود رأي أمها على صدر الحائط المشروخ في النفس .. القلب يحدث إدمانًا والعمر لم يبق فيه الوقت إلاّ للبحث عن السعادة . تحرّك هو وهي وهما يسيران تجاه البحر .. سألته وهي مندهشة حين انطلقت من عينيه دمعة ساخنة موجعة على الخد الخشن بالشعيرات البيضاء من الأيام رغم أنه في الثلاثين .. إلاّ أن عمره يعلن على وجهه أكثر من ذلك ..

لم يعلّقوا صورته في جريدة .. لم يلتفتوا إليه . إنه عزف كل الألحان السرية في أمسية حمراء في مخدع الفأس . وهما يسيران على الشاطئ ظهرت فجأة أمامها سمكة كبرى .. ضحكت هي وقالت : انظر . نظر إلى السمكة ، نعم سمكة ، ماذا بها ؟ قالت وهي تمسك يده : إنها على الشط ، من الممكن أن نصطاد سويًا ، استراح بكتفيه على صدرها وقفز مسرعًا تجاه الشاطئ ليصطاد السمكة التي كانت على الشط ، جرت محلقة وهي تضحك .. جري هو ، حاول أن يمسك بالسمكة .. أخذت السمكة تتدحرج إلى الداخل خطوة ثم خطوتين، أخذ يدخل تجاه البحر، صرخت هي :

- ارجع .

لم يتراجع .. تراجع مرة يوم أن سقط المطر ، تراجع يوم أن أخبره أبوه أن يترك الشركة ويعمل في المحل ، تراجع يوم أن قالت له أمه أن يدخل على زوجته في ليلة الزفاف بيديه المغطاة بالشاش ويخرج دم البكارة علانية على الناس ، لكنه الآن لن يتراجع مهما كان الثمن ..

صرخت .. جري الناس ، حاولوا أن ينجدوه . خلع أحدهم ملابسه وألقي بنفسه خلفه ، خلع الثاني ثم الثالث ، وهي حاولت أن تلقي بنفسها معهم ، لكن الطوفان قد بدأ .. لقد هاجت الأمواج وثارت ثورتها وغطت كل الشاطئ .. نعم لقد كان طوفانًا أعمى .

خرجت الصحف في الصباح تعلن أن الطوفان أغرق المدينة الساحلية التي ظهر بها السفاح منذ عشرين عامًا ، وابتلعت الأرض أجمل أنثى فيها ، والتي أكل أهلها الديدان في المجاعة الخامسة والسبعين بعد الألف ، والحكومة قد رصدت ميزانية ضخمة لكي تبني محلها مدينة جديدة أكثر إشراقًا من المدينة الساحلية . كان هذا في الصفحة الأولى ، وباقي الصفحات كانت تعلن عن استقبال شعبي ورسمي لحاكم البلاد (مسح الأجواخ) .

الجراد :

تمهّل . القرية ناكرة الجميل .. يوم يمضي قزمًا وآخر يأتي عملاقًا ، وآخر الأيام قد يختفي من نتيجة الحائط ، والسبب الإعياء الذي أصاب الزمن .

كان رؤوف عبد الحميد الصحفي في جريدة (على كيف الحكومة) يسير وهو يحدث زوجته التي تزوجها منذ شهرين وهي لا تنظر إليه بل كانت تسير معه هنا بعيدًا عن المواصلات الفاخرة والراحة الكبيرة ، كانت تضع أذنها على صفارات القطارات التي تخترق العاصمة معلنة عن قدوم المسافرين وهو يضع أذنه على قلبها الصغير يحلم بالأمن بعد أن ترك الصحيفة التي كان يعمل بها .. قالت له : يا رؤوف إن الجراد هنا في الريف يأكل الزرع والناس . ضحك .. قلبه الأبيض لم يفهم سر اللغة السهلة ، بل كان ينحت في ظل الكلمة الصعبة ، ينحت من صخر الأحرف مشتقًا نادرًا ، أو يبحث عن حرف آخر يعلم العالم شيئًا عما يكنه صدره الصامت .

– صدقيني الجراد لا يهاجم الريف بل يهاجم ....

قاطعته : الحشرات في المدينة غير الريف .

– الحشرات هي الحشرات وأظن أن هذا يكفي .

الكفر يمر على أبواب المؤمنين .. الكفار بالخبز وبالحياة .. الكفار بالله وبالإنسان .. الكفار بالثورة وبالحرية .. الكفار بكفة ميزان . الكفر فوق الإنسان .. الكفر يلعن كل الأشياء .. علقت في عيونه المؤمنة صورة طفلة فلسطينية ، مزهرية من أرض لا تعرف إلاّ الله .. لم يكتف بأن يخبز لها كل يوم من قلبه رغيفًا طيبًا ، بل أخذ يصنع لها أقراصًا من ضلع الوعي الشامخ ، وقص عليها قصص الأسرار تحكي عن معنى القيمة ، عن طرح في شجر القمر ، عن نقش طمس في زيت الحائط التاريخي ، عن طرق في فجر أسود يدوي .. عن آية ،

آيــة صــوم ، آيــة بقـرة ، آية حلم ، آية صـمت ، لكنهـا لـم تلتفـت له ونظرت إلى الأنثى ، وجدت شيئًا غريبًا يقترب رويدًا حتى غطى سماء القرية ، صرخت :

– جراد ...

لكنه لم يقف طويلاً بل تحرك هذا الجيش بعيدًا .. بعيدًا ارتمت على الأرض وغطت وجهها ، بينما وجهه هو يتفحّص هذا الجراد الذي يرحل ويطير ، ومثلما تفحّص وجه أخته تفحّص وجه المدرس وهو وجه التاريخ .. يسقط العظماء في خانات الخيانة ، ويسقط الشرفاء من قاموس الصدق لقاموس الزيف . اختفى الجراد فجأة وهي مازالت تبكي على الأرض .. رفعها ببطء ونظر في وجهها .. لكنه لأول مرة يرى الخوف حينما يتجسّم أمامه في عين زوجته . نظر إليها وقال : لقد رحل .

نامت ليلتها تحلم بالهجرة من القرية .. نام ليلته يفكّر إلى أين رحل الجراد .. فجأة وجدت أمامها جريدة الصباح تعلن أن الجراد هاجم مدينة «السكان» وأكل البشر فيها بدلاً من المزروعات ، والإصابات خطيرة .

نظر إليها ..

نظرت إليه ...

ارتمت في أحضانه ، الويل لمن يفهم الأشياء بالسطح .

أكل البيض والجبن اللذين يبيعهما الجيران لهما تحية ، وجلسا في الحقول يسمعان حديث النقاء الصافي والمذياع يعلن أن الجراد يهاجم كل المدن .. والأمر خطير .

النمل :

وعندما يموت الغريب في بلاد غريبة ، وعندما يحدث فإن الأحداث كلها في ذهن الغريب أحداث غير معقولة .. الغربة تلمع في عين فاروق حسني وهو يدخّن سيجارته في عنق باريس .. باريس لا تعرف المهادنة .. باريس .. نعم باريس .. باريس لا تهـزم الحـرية والإبداع والمزاج والعطاء .. باريس العطاء .. قالت له رفيقته الفرنسية : إنني شاهدت في إحدى لوحاتك المعلّقة « نملة تزحف » طفولة في عينيها !!

- ضحك .

رجولة في عينيه تبحث عن جدوى للأشياء ، تبخّرت أحلامه على لوحة كان يرسمها بالأمس .. آه يا أمس الغريب في بلاد الغربة .. البحث عن نفس ، الاغتراب أصبح فرنسيًا لكنه في فرنسا يصبح الاغتراب من نوع راق .. لكن ما جدوى أن لغة العصر لم تعد جسراً وأن القلق الذي يعتريه الآن هو نفس القلق الذي اعتراه وهو في بلاده ؟! صاحت الفرنسية الشقراء وهي تقف : انظر ، ها هو النمل في أحد الأركان بالحجرة يزحف .

ضحك .

كان بالأنفوشي يضحك ويجلس على البحر ساعات طويلة .. أمام مراكب الصيد يتنهّد قلبه ، نورس طائر فوق الماء يحمل سمكة صغيرة أرادت أن تصعد على الجسر .

- لا يهم .. النمل شيء عادي .

كوارث غريبة مرت في ذهنه .. حين استسلم للدفء في تلك الأمسية المفضوحة ، حينما أتت إليه عشيقته إيزابيل وهي بمعطف شتوي على جسدها الذي اكتشف فاروق حسني أنها لا ترتدي شيئًا أسفله .. وأمام الجسد العاري انبهرت عيناه . جلست عارية على ركبتها تبكي ، نظرت إليه :

- أريد كأساً .

الوزير السابق قال له : أنت محظوظ ، لقد تم تعيينك في منصب كبير في فرنسا . فاروق لم يذق الهزيمة في حياته .. يقولون إنه ابن النجاح .. والنجاح حليفه طوال حياته .. الهزيمة لا تحمل هوية في تاريخه، ولم يحمل إشارة الفشل ، ومزاجه النادر جلس بجوارها ..

قالت بفرنسية واضحة : انظر .. نمل يسير على اللوحة التي في اليسار .. «الأبيض العملاق» .. هكذا يسمي لوحاته أسماء غريبة .. هكذا كان يرى أن العالم إما عملاق أو قزم .. حتى إنه بدا الفشل أمامه عندما قبض على الوزير السابق بتهمة انقلاب .. قالت إني عينت لكفاءتي وسأسافر لفرنسا ، يعني سأسافر لإيفل .. البرج ، فرنسا الحلم، فرنسا الوطن ، صرخت إيزابيل : النمل يا فاروق كثر في الحجرة .. قال : غداً سآخذ كل اللوحات إلى المعرض وسننظف الحجرة .. في اليوم الثاني نظف الخدم الحجرة ، لكن الشيء الثابت الذي رآه فاروق وإيزابيل عندما صعدا إلى المنزل مسرعين معهما سيارة لحمل اللوحات أنهما وجدا أن النمل قد أكل اللوحات وأن النمل قد أكل الألوان .. فنظرت إلى فاروق وارتمت في أحضانه ، صرخت ، وجرت إلى السلم. أخذ يجري خلفها : «سأرسم لوحات أخرى .. سأشتري ألواناً أخرى» سأتزوجك يا إيزابيل بعد أن يطلقك هذا الرجل .

الضفادع :

تنتهي كل مشكلة ولكني لن أفعل ذلك .. أن أصل ووحدتي وظلي أنا على الآلة الكاتبة ، أصابعك صارت نتيجة التدريب تعرف أين يوضع الإعلان والأسماء والعناوين ، ودفتر الهاتف حفظته وأن تمر على السطر بأكمله مجرد نظرة .. قال وهو ينظر إليه :

- الفن عمل إنساني راق .

قال وهو يلعب بأصابعه على الآلة الكاتبة :

- الفن علاقة بين الوعي والمادة .

يريد أن يمتلك الخبرة الجمالية والوعي الجمالي كي يكون بارزًا في عملية التغيير في الفن ، وأن يكون من الذين غيروا مجرى التاريخ ، كان يتابع الواقع ويعايشه ويتأثر وينمو في داخله دافقًا ممتداً بوجوده ، بزمانه ومكانه .

كان يريد أن يغيِّر الواقع ، كان يريد ألا يكون الفن بضاعة . كانت رائحة الزراعي تسيطر علي أفكاره .. كانت روحه معلّقة في الغد في أن ينهض ويهضم في أحشائه عالمًا نورانيًا جديداً يرتبط أكثر بالطموح والإنسان والمادة والروح ؛ لكنه فوجئ ذات مساء أنهم داخل حجرته ، وفي شكل سكون مميت ، علقوا في صدره ضفدعة وملئوا حجرته بالبوتاجازات والأجهزة الحديثة ؛ الراديو والتلفزيون ومكتبته تغيرت ملاءتها ، صارت من كتب تحت السرير إلى كتب في رفوف كأنها تأخذه في عالم ساحر غير مفهوم يشوبه التجريد واختلاط الأمور ، ولم تذكر كلمة توعية في أي كتاب أو جماهير .. صار لا يتحرك إلاّ وعيه خلفه وأزمته تزداد ، والضفدعة التي علّقوها في صدره أصبحت كفًا على الحائط تعكس وجهًا غريبًا علّق على فكره أن يلقي بالصورة إلى الخارج ؛ دخل عليه أحد الأشخاص وهزه قائلاً :

- أنت تريد أن تعطل حركة الحياة .

كـان يريد أن يسـمـع صـوتًا من ذاته ، فـتـح المذياع ، سـمع صـوت الضـفـدعة ، وعندمـا حـاصروه حـاول أن يخرج ذات مـسـاء وأن يصرخ ويبكي في الطريق وهم يجرون خلفه ، لحظتها شاهد ضوء القمر وسمع صوت ارتطـامه بالأرض ؛ وعندمـا أخذ يقـاومهـم ويقـاومونـه حتى يعود إلى حجرته سمع صوتًا آخر ، سمع صوتهم ، وبـدأت المعركة عنيفـة في المقـاومة فـشاهد الدم في وجهـه يسقط ، فكان جديدًا هذا الشكل عليه .. لحظتها لم يبك .. إنما ضحك كأنه يشاهد لون الحقيقة .

الإسكندرية ١٩٧٦

عندما تحوّل المواطن فوزي الدسوقي
إلى سياسي

ثانية القهر

– فوزي ، يا فوزي

انتفض واقفًا . نظر في وجه أمه :

– ماذا حدث ؟!

«دربك يا حلم الشمس نائم .. العقل والوهم والمعاصي فوق عينيك ، أيمحو القهر المعلّق ، الريح والبحار ، تعبت يداك ، أنت في زمن سحيق ، منذ أن عبثت الأيام بأبيك وأمك وأنت تتجرّع أحزان اليتامى ؛ ووجهك مشدود إلى النجوم» .

– ألن تبحث عن عمل يا فوزي ؟

– الأيام رتيبة ، في كل حقول الرزق يبحث عن ريح الرزق ، عن انفجار اللحظة التي تولد له مالاً ، يبحث في الأرض شبرًا شبرًا وخطوة خطوة وميلاً ميلاً ، والصبر مفتاح الفرج ، ولم يجد عملاً سوى أن يكون مساعدًا لمخرج في مسرح متواضع للهواة مقابل أربعين جنيهًا في المسرحية .. عند علي رجب المخرج المعروف في المدينة بوظيفته .

دقيقة القهر

– يا فوزي ليست هذه وظيفة يا بني .. منذ مات أبوك ونحن نريد أن تكون رجل البيت ..

- «لا أدري هل التمثيل هو بساط السحر الذي ينقلني من عالم إلى عالم ؛ ربما أكون نجمًا سينمائيًا، ربما أكون ممثلاً كبيرا» .

- ضحكت أمه طويلاً ..

- مغرور أنت كالمطر .

تسكع في الحارة قبل أن يذهب ، حلم بأنه يغزو العاصمة . ها هي القاهرة تبحث عنه ، يقتحمها في عز الليل وتستقبله الجماهير ، آه يا قاهرة ، أحسك في صدري كالكون ، كنغمة الأحلام ، أغفو على صدر الحلم ، يوقظني جنون السيارات المارة وأعود في جفني الحلم كي أهرب من العمر .

قال محمد حسين المدير العام للمؤسسة :

- إنهم يريدونكم في أمن الدولة .

- لماذا ؟

- أنت وعلي رجب .

- أنا ؟!

نعم فوزي الدسوقي مساعد مخرج وعلي رجب المخرج وهذا إجراء روتيني لأمن الدولة .

ساعة الشمس

ها قد ذهب زمن الطفولة والحلم بالمهرة ، ها هي المناجل والمشانق ، ها هي الطعان والسهام والأحزان ، والصحوة بعيدة المنال .

- أنت ..

- نعم ..

- اسمك ؟

- علي رجب .

- ما علاقتك بالسياسة ؟

- علاقتي بالسياسة ؟! علاقتي بالفن ..
- والسياسة ؟!
- لا أدري !!
- أنت متهم ..
- بماذا ؟
- أنك تتعامل مع السياسة .
- وأنت ؟
- فوزي الدسوقي .
- ما رأيك في النظم التقدمية ؟
- نعم ؟
- هل تعتقد أن البرجوازية أفضل في حكم الشعوب ؟
- لا أفهم ..
- أليس النظام الاقتصادي الحر أفضل ، كل حسب موهبته ؟
«إنهم يذبحون الحمام ، حفروا في رأسه سواحل التساؤل العظيم».
- ما معنى برجوازية ؟
«انتظرته أمه يومها حتى آخر الليل ، مشى في الحارة لا يفهم أي شيء ، الاقتصاد الحر .. النظم التقدمية .. البرجوازية .. (دع الصبي الجريح ليبكي علي حين يلهو من لم يصبه سوء ، فلابد أن يسير بعض الناس بينما ينام آخرون .. هكذا تجري الحياة .. أليس هذا يا سيدي وغابة من الريش ووردتان من الشرائط على حذائي كفيلاً لو خانني الحظ في الحياة أن يجعلني شريكًا في فرقة تمثيل، ما رأيك يا سيدي ؟
س - مسرحية هاملت
قالت أمه : أين كنت ؟
- أين كنت ؟! كنت في المقهى .. ربما كنت في الشارع .

يوم الحساب

في الشارع ، لا أدري ، ربما كنت في الجنة يا أمي .

ضربت كفًا على كف .. خلعت غطاء رأسها ورفعت وجهها للسماء ينتقم منك يابن بطني ، ماذا يمكنني أن أفعل ؟ ماذا يمكن أن تفعل به الأيام ؟ ماذا هو فاعل بها ؟ في اليوم التالي ، تسكع في الشوارع ، وقف أمام بائع الكتب الذي يقف أمام مركز الثقافة الفرنسي ؛ أخذ يبحث في الكتب عن أي شيء مفيد ، واستطاع أن يحصل على مجموعة كتب سياسية؛ .

- في يوم .. فهم معنى برجوازية .
- في يومين .. فهم معنى كلمة رأسمالية .

وحينما يقف الغراب أو تنساب أصوات أخرى في هدأة الليل منذرات تمضي بنا شهورنا على مهل بطيئة تمط ساعات العمر ؛ وحينا تثور من الترجي الشديد والحذر .

وجامع من الشعور ينفجر .

لكي يزاح حائل من الشجر .

يحول دون شيء من الصبر .

ض ٢ مسرحية عسكر ولصوص - الأسترالي

دوجلاس ستيوارت

شهر الانطلاق

أخذ يتحدث بما قرأ ، أخذ يفسِّر أخبار الجريدة ، ميز بين الصادق والباطل ، نهش عظامه رؤية الإبداع العبقرية ، في المقهى الذي يجلس به أخذ يتحدث عن هزيمة طبقة أمام طبقة وعن تخلي الثوري عن حلمه أمام المغريات وعن تحويل المثقف أمام المال إلى مجنون أو جبان واختيار الصعب والصعاب .

جلس في المسرح يتحدث مع الممثلين عن الانتهازية .

– دخل علي رجب الصالة وجد فوزي يتحدث بصوت مرتفع .

قال : بروفة . .

نظر فوزي إليه . . إلاّ أن علي رجب صاح قائلاً : بروفة .

تحرك الممثلون ما عدا فوزي الذي راح يسير بخطوات ثقيلة منحها إلى علي رجب وهمس في أذنه : لماذا ؟

نظر إليه علي رجب وقال بصوت مرتفع : عن أي شيء تتحدث ؟

همس فوزي الدسوقي : كنت أعلمهم .

نظر علي رجب إليه :

– ليس هنا هذه الأحاديث ، ربما تكون منهم عين تتجسّس عليك .

صرخ فوزي الدسوقي :

– أنا لا يهمني أحد ، لا يهمني من يسمع أو من يبلغ أي شيء ، أنا لي رأي أريده أن يصل إلى كل الناس .

نظر علي رجب وصرخ في وجهه :

– أنا لا أريد أن أعتقل مرة ثانية أتفهم ؟ أنا لا أريد أن أجد نفسي في زنزانة .إنني أريد أن أصل إلى الناس عن طريق المسرح لا عن طريق هذه الخطب التي تردّدها هنا .

خرج فوزي الدسوقي إلى الشارع . . لا أحد يفهم أحداً ، لا تقدير لشيء .

الأطفال الجياع ، صراخ الطفولة المبهم غير الواضح من أعماق كل منا ؛ كل الكلمات عنواني ، والكلمة تابوت وفلسطين تحية الأدباء وتحية الجميع وفي سيناء تاريخنا ، والشهداء ، فرشنا كلمات ، فليدخل كل منا في حرف أو كلمة أو جملة مفيدة أو أي استمارة أو كتابة ؛ لم نترجم أي شيء إلى فعل ، الهزيمة تلحق بنا سواء رضينا أو لم نرض ، هل نوافق على أن نكون حرفاً في كلمة هكذا تعاملنا مع أعدائنا بالكلمات وعاملونا هم بالمدافع .

يجلس مع صديقته نادية ، فوزي يجلس فوق المعرفة ونادية تجلس على أرض الحب ، انغمست أحلامه كالسيوف في أحضان الصخر ، راحت تداعبه بياسمين الود والشفقة والعطف ، قال لها :

– إن هناك طبقة تحمل على قوت طبقة .

سألته : عن أي شيء تتحدث ؟

نظر في عينيها . .

– عندما تحدثت مع الثري الفلسطيني في شارع سعد زغلول صاحب المحلات والملايين عن رؤيته الشاملة للمستقبل ؛ حدثني عن سعر الدولار المنخفض والذهب المرتفع ، وعندما تحدثت مع الفقير الفلسطيني المطرود من غزة حدثني عن السيارات واللعب في الحارات وكل طفل خلفه خنجر إسرائيلي ، لماذا يموت الفقراء تحت عجلات القضية ويركب الأغنياء على رقاب الإعلام مبتسمين في صور الزعامة ؟

أشعر أن الزعامة أحيانًا مومس في ثوب راهبة .

– ماذا تقول يا فوزي أنت لست كعادتك . . ما الذي حدث لك ؟ هل جد جديد ؟ لم يجبها .

ذهبت نادية إلى علي رجب في المسرح ، حدثته عما حدث لفوزي الدسوقي وأنه يظل في المكتبة يقرأ كثيراً وأنه يسير في الشارع حاملاً كتبًا ويريد أن يعرف كل شيء ويتحدث بكلمات لا يفهمها . . وبكت لأنها خائفة عليه .

قدم لها زجاجة مشروب بارد . سألها :

– عن أي شيء يتحدث معك ؟

أجابت مرتعشة :

– عن الزمن المنعش .

والناس في هذا الزمان ليسو هم ، كانوا في زمن ما ، لكن الانقسام حولهم ودخلوا شبكة الطيف الضوئي للخوف ، الخلايا اللاسياسية

هوت تحت الشبكة وضمرت.. وفي مدار الطيف نمت الخلايا الفرعية، الحياة نفسها أفرزتها، ليستمر قانون الموت في الخوف، أنا أتحدث إليك عن الجواهر، عن تكون الذرات الأولى في الصحراء، يوم كانت الدنيا غمراء ثم صرخ أول طفل تحت الريح والشمس ثم حبا ثم مشى ثم امتطى أول صورة ثم طعن أول عدو ثم انتشى ثم اغتيل ثم سقط على وجه الصحراء، هل سأل أحدكم نفسه يومًا عن الزمن الحي والزمن الميت وفي أي منهما يحيا، هل أدركتم معنى الجوع والعطش والسجن والأرق والعرى والقتل والخيانة.. إن أحدًا منكم ليس ابنًا شرعيًّا للزمن».

من قصة القتل حيدر حيدر .

سافر إلى القاهرة ،نصحه الأصدقاء بالقاهرة، القاهرة، حيث حشد المثقفين .

– أين سأجدهم ؟

– في مقهى ريش .

للقاهرة والمثقفين.. وحجرة في السيدة زينب ؛ نصحه الأصدقاء أن يترك بورسعيد، لا يمكن أن يعيش في جو مليء بالاستفهام، لا أحد يفهمه هنا، لا أحد يفهمه، لا أمه، ولا حتى علي رجب، لا أحد .

الحل الهجرة،

هجرة صغيرة .

متاريس من الأوهام والأحقاد.. من يرحمني من رحم الكون . لا أحد يستطيع أن يلتمس درب الحقيقة سواي؛ الهجرة أفضل من الاستقرار .

المثقفون .. الأحاديث :

وحجرة يسكنها مع أم نبيلة .. في شقتها حجرة مفروشة، بمبلغ بسيط ..

لا تحاول أن تلمسني . صرخت في وجهي «نبيلة»، صرخت في

وجهي القاهرة وأطل من القلعة وجه طومان باي محملقًا فيه .. بصق على النيل .. فاض النيل .. غرقت آخر مركبة للصياد العاشق .

– ماذا تفعلين عندك يا نبيلة ؟

استدارت إلى أمها ونظرت إليه .. هرب الدم من وجهه قفز قلبه على صدرها .

اهتزت شفتاها وبصوت مشروخ :

– لا شيء .. كنت أسأل الأستاذ فوزي هل يريد أن يشرب شايًا ؟

قالت أمها : تعالي يا بنت .

قطرات الخجل على جبينه . عندما فتشوه بالأمس لم يجدوا عنده شيئًا .. سألوه عن سبب هجرته من بورسعيد للقاهرة .. قال : أبحث عن نفسي .. ضحك رجل الأمن طويلاً ..

– هل وجدتها في مقهى ريش ؟

هز رأسه بالنفي .

صرخت أم نبيلة : إنه ليس مجرمًا .

قال الرجل الغريب وهو يتنفس :

– وهذه الكتب الكثيرة التي عندك من أين حصلت عليها وكيف تدفع الإيجار ؟!

(المرارة تطفو على صدره والأخضر يرقرق في عينيه ، ومقعده ذو الثلاث أرجل ينجذب نحو الصمت) .

(لا أعرف ما اسمي اليوم ولا اسمي البارحة .. الرجال خرائط ملونة والأطفال مسيرة الأسماك والديار متشحة بالسذاجة) .

قالت نبيلة وهي تلمس يديه :

– أستاذ ..

– نعم .

– ما هو الحب ؟

(اهتزت شجيرات الأحلام في نفسه .. ضاق ذرعًا .. الأفق مسلح بالأشياء ..) قال وهو يترنّح :

– الحب يا طفلتي ..

– أنا لست بطفلة .

– ماذا تكونين ؟!

– مادموزيل ، عندي ١٥ سنة .

قفزت قهقهة حنان أبوي على وجهه .

– الحب يا مادموزيل هو ...

– هه .

قطعت الأحاديث صوت أمها :

– بنت يا نبيلة ماذا تفعلين عند الأستاذ ؟؟ لا تعطّليه ..

«لم تعرف أم نبيلة أنه ليس أستاذًا ولكن شعره الناعم وملابسه الأنيقة تدل على أنه أستاذ» .

«طوابير تخرج في شوارع القاهرة تكتسح المدينة أصواتهم منابر ينادون بشعارات تمزّق كل الاتجاهات» .

– ماذا حدث ؟

أدركت أم نبيلة أن البنت لم تنم ليلتها في السرير ، وإنما راحت في غرفة الأستاذ ..

(يومها كانت المظاهرات .. جرت الشرطة خلفه .. اقتحمت فرسان الخديوي مشارف المدن .. اقتحم الخونة من المصريين بقيادة علي حنفي جيوش أحمد عرابي) .

شاهد سعد زغلول أشجار اللوز في حديقته وطيور باريس ونسائم أوربا .. خرجت شجون النضال ليلتها في أحضانه وعندئذ راح إلى المنزل بعد مطاردة العسكر ليلقي بجسده المنهك على السرير .. شاهدته نبيلة وهو يدخل مسرعًا .. أصيبت بالفزع عليه .. راحت تلقي

بنفسها بجواره على السرير ، وراحت تمسح الجروح من وجهه .. راح يجول ببصره على العسكر الذين أمسكوا هدى فتحي الصحفية - التي تعرّف بها في مقهى ريش - من رأسها وألقوا بها على الأرض وسبّها الشرطي ولعن آباها وأمها ونعتها بالعهر ، وهي تصرخ :

- تحيا مصر .

- مالك يا أستاذ .. الساعة واحدة بعد نصف الليل .. لماذا تأخرت ؟!

سقطت دمعة على الجبل ودمعة على النيل ودمعة على المتظاهرين ..

- لا شيء .

- أنت تبكي ؟!

راحت تمسح عينيه .. بينما راح يبكي بمرارة التاريخ ولوعة الرجال .
ارتجفت نبيلة وهي تمسح دموع فوزي ، وراحت وهي ترتعش تضمه في أحضانها . أخذها في أحضانه .. بينما تجوب شوارع القاهرة سيارات الشرطة .

في الصباح :

أدركت أمها أن ابنتها لم تنم في الحجرة .. نظرت له .. أخذتها وخرجت .. عادت مبتسمة ..

وعندما أتى الحاج في المساء طرق عليه الباب كالعادة :

- يا أستاذ فوزي .. تعال اتعشى معانا ..

خرج من الحجرة وقبل أن يصل إلى الحجرة اقتحم المنزل الفرسان المقنّعون . أخذوا فوزي وكتبه وأوراقه .

صاح الحاج :

- لا حول ولا قوة إلاّ بالله .. إنه إنسان طيب .

بينما نبيلة أخذت تبكي وأمها راحت تتحسّس بطنها الحامل في الشهر الخامس وهي لا تدري ..

أربع رسائل من العمر الضائع

الرسالة الأولى :

حبيبتي زهرة :

وصلت الساعة العاشرة صباحًا .

سقط العمر صريعًا على موائد الخديعة .. ورحلت معك في جوف النقاء . طعنتنا خناجر التقاليد والعادات وعدنا لنبحث عن كتلة في هذا العالم .. عن ركن .. عن زاوية نرسم عليها صورة الإنسان .. لكننا بدأنا رحلة بلا زاد .. زادنا القلق وسفرنا تاريخ الإنسان .. أتذكر حديثي الآخر معك .

– أنت لا تعرف الحب .

– أنا أعيش الحب .

وثرثرنا .. سفسطائيًّا كان الحديث بيننا .. من نوع البحث الكريه . أتفكّر أنني شاهدت العالم في وجهك مرة مسجداً ، وصليت في عينيك بعشرين قصيدة ، ورصفت طرقات مدن عينيك بأناشيد الأطفال في الصباح في المدارس ، وعلقت أعلام الحرية في رموشك .. لكن زهرة ما الذي حدث بيننا ؟! الأيام ليست نتيجة على حائط الزمن تنزف .. تسقط كل يوم منها ورقة ونحن نحاول أن نتمسك بشيء .. هذا الشيء هو قيمة وجودنا .. الجنس ليس مشكلتنا ..

أنا قبّلتك على سلم المركز الثقافي .. ليست مشكلة أن رآنا حارس المسرح ونحن متشابكان وفي وضع ما في نظره حقير .. ليست

مشكلة.. أعطتيه سيجارتين بعد أن صرخ وجمع الدنيا علينا وطلبت له مشروبًا من الشاي الساخن ..

قال :

– يجب يا أستاذ أن تخبرني عن مثل هذا الشيء.. كنت أعطيتك غرفة خالية .. «الغبي لا يفهم أن لحظة الحب التي مرت بيننا ليست لها حسابات سابقة ، وأن القبلة ليست في قائمة الاستعدادات ، وأننا حينما التقينا على السلم كنت هاربًا من الدور العلوي ؛ حيث جلس عشرون أديبًا وصحفيًّا وناقدًا يتحدثون عن الأصالة وكل منهم يدخِّن ...

يشعر أنه خلاصة العالم .. وعبقريته المتفرّدة .. وإن كنت أشعر أنني أبحث عن شيء حقيقي غير الكلمات فوجدتك أنت .. بوجهك الطفل براءة العالم .. تدهشني في المرأة تلك البراءة .. لقد أتيت إليَّ كما أخبرتني .. فجأة تركت المذاكرة وأتيت لي .. شربت من شفتيك دهشة الوجود فكنت الحقيقة .

«بلع كسينجر مشروبًا وهو يرى نجوىٰ فؤاد ترقص في حفل استقباله» .

عندما فتحت صدرك .. أقصد فتحت قميصك وتحسّست جسدك.. في تلك اللحظة دفنت رأسي في ثدييك (اجتمع عند الكيلو ١٠١ الوفدان العسكريان المصري والإسرائيلي لتوقيع اتفاقية سيناء) .

تنهّدت أغنيات الحقول المجهدة في عينيك وعودة الفلاحين من الحقول مطأطئي الرأس يتحدثون عن الكهرباء التي سوف تدخل اليوم.. وتأخرت قليلاً ، وأنت كنت تتنهّدين بأغنيات فيروز ، وتحلّقين في سماء البحر .. تداعبين بعينيك الأمواج الغاضبة وتأتين إلي في التاسعة مساء ، لا تغضبي إذا حدث وأتى الحارس إلينا .. لأن العالم لن يتغيّر .. هل نستطيع أن نغيّر العالم .. البحر يتغيّر .. رأيناه بألف لون ولون .

الطيور تتغيّر .. تطير من بلاد إلى بلاد . يهاجر السمان .. يهاجر ويعود ونحن أنا وأنت نهاجر لحظة يعاقبنا المجتمع .. الوعي يا حبيبتي خنجر في الضلوع .. الوعي مأساة العصور .. السمك يهاجر من النيل إلى البحر إلى النيل . كل الأشياء تتحرّك .. تتغيّر .. ولماذا نحن نرتدي الاستكانة للزمن .. ماذا يعني العمر وما هو الثمن ؟!

حدثتك عن چيفارا .. سميتني چيفارا ، وكنت تبتسمين وأنا أعرف أنك لا تسخرين .. لكن مداعبة المحبين في ذهنك شجرة حنان .. ابتلع العمر منا كل شيء ونبتت الموالح في فلسطين حرمانًا .. حرمانًا .. وأين أجد الأمان .. السلم الذي التقينا عليه نسى خطوات الصاعدين والهابطين وخطابك لي .. وهجرتك لي شيء ساذج .. تذكري أن الحب ليس إلاّ الفعل .. والقلب فعل والحركة فعل .. وماذا أنت فاعلة بي .. وانتفضنا شجاعة ووقفنا على الجبهات. صاحوا نحن الأبطال .. مواليد جيل النكبة .. هو جيل الانتصار في أكتوبر .. أدفئي رأسي في صدرك .. لقد مات شوقي الأرناؤوطي على رمل سيناء ..

السويس تولد في المقاومة .. تبيض أمريكا في طبق الصداقة المساومة .. ويسقط عمري تحت قدميك نداء : تعالي إليّ أيتها الصبية الغبية .. فالفضيحة ليست القبلة ولا حارس المركز !! الفضيحة في الافتراق ...

حبيبك

عمر نجيب

الرسالة الثانية :

أتى بها طفل صغير .. دق الباب وقبّل زهرة وأعطاها لها وجرى وقال سأعود في المساء لأستلم الرد ..

عمر الحبيب ..

هذا الزمن العاصي .. عيون النساء خيانة ، وعيون الرجال مهانة .. وتطفو على أذرعه قلقة . الزمن أغنية شقاء أمواج عاصية .. عمر يا حبيبي ، هذا الزمان النذل لا قيمة فيه للمغامرة الشريفة وأنت تحمل دائمًا بين شفتيك كلمتين «مش عارف» وأنت تعرف كل شيء .. كل شيء .. القبلة التي نسرقها على السلم في الشارع .. في غرفة ضيّقة .. إنك تولد في المغامرة .. والفن لديك مغامرة .. عمر ، كنت دائمًا تسألني من أنت ..

– أنا زهرة الشقية .

– العمر ثلاثون لقاء معك ثلاثون تجربة .. ثلاثون قرنًا مرت في داخلي .

– الوطنية .. أحبك ، أعشقك .. أكره فيك المغامرة التي تصل إلى حد التهوُّر .. الانفعال الدائم فيك غير معروف الهوية .. والنظرة الشقية دائمًا في عيني ليست لها دلالة سوى البداية ، أنا وأنت وقعنا في الفضيحة .. من يحبك يتحمّل أي شيء .. من يحبك يقبل فيك ضحكتك .. دمعتك .. صوتك الأجش حين تغني .. قلبك .. قلبك الكبير حينما يتسع للعالم ، صوتك الغاضب ، صراخك في الطريق يقبل استمرارك أنت الرجل الطفل .. الرجل المتجدِّد دائمًا .. رجل كل يوم .. رجل الزمن المتمرِّد .. رجل الزمن المقهور .. رجل كل العصور .. أنت في نظري نصف ملاك .. نصف بشر .. صعلوك .. هادئ .. ثائر .. حائر ..

يا حبيبي

أرجوك حاول أن تخرجني من عالمك .. أنا قدّمت نفسي لك على السرير في بيتك .. تحمّلت كل شيء .. لكن في هذا العالم يرغب الإنسان أن يجد الاستقرار .. هل أجده في الفرار معك وأنت تلاحقني في منزلنا .. تسكُّعك الطويل على الكورنيش .. جريك خلفي في المنتزه .. وقارك .. كل محاولاتك الطفلة .. يا طفلي العظيم .. لم أجد أي رجل مثلك في العالم .. لكن ماذا يعني هذا .. إلى متى .. اكتشفت ذاتي فيك .. لقد اكتشفت فجأة أنني يا حبيبي لا أتحمّلك علمًا بأنني لن أجد مثلك ولم أحب مثلك .. رجل يحب المشي وأن يأكل الترمس وأن يلقي الشعر وأن يتنزّه وأن .. وأن .. لقد أصبحت مجنونة في نظر أمي وأبي وإخوتي .. كيف أقبل أن أسير مع رجل لا يرغب في الزواج .. لماذا ترفض الزواج ؟ لماذا تهرب ؟ تقول دائمًا إن الزواج سهل والحب هو الشيء الصعب .. لكن إذا تزوجنا يموت الحب . وكيف أعرف أنك تريد حبًا مثل أرجوان .. تريد أن تجلس في البيت أربعة عشر عامًا تحب وتعيش الحب ولا تخرج من المنزل ، تريد أن تسمع الموسيقى وتحب وتكتب الشعر وتمارس الحياة .. لكن إلى متى ؟ إلى متى ومن التي تتحمّلك يا قلبي الصّغير .. أرجو ألاّ تغضب مني .

عمر حبيبي .. عمر حبيبي .. يا وجه الطفل وقلب الطفل ورجولة البراءة وخشونة الحنان وقوة الأبوة .. لقد آن الأوان وآن الرحيل .. التهمة هي أنني أحبك والفضيحة أني أخاف منك عليك ، واليوم تموت زهرة .. تموت زهرة من عالمك لأنها تحبك .. أحبك يا عمر .. وداعًا ..

زهرة

الرسالة الثالثة :

أتى الطفل إلى عمر نجيب بينما كانت درجة حرارته مرتفعة قليلاً وهو يبلع الأسبرين ويشرب كوبًا من الشاي . .

– حبيبتي زهرة . .

يمر عمري على حوائط الزمن الأعمى . . يتسلق أشجار المواجهة يا غاضبة مني بإخلاص شديد وبود شديد . . وبحب شديد . . ضعي يدك في عصارة العودة والبدء ، كي تنتهي من هذه المشكلة . إن الحقيقة ليست هي أنت أو أنا . . المشكلة هي المجتمع يعني الجميع وللجميع .

الإضراب العام الذي قام به سائقوا الترميات والأتوبيسات شل المدينة . .

لم أستطع أن أحضر لك . . قرأت الجرائد التي تنفي الإضراب . . مرت ساعات طويلة في الشمس المكتنزة على رأسي . سرت تحت أبنية المدينة ، لم أستطع الوصول إليك . قابلني صديقي شاكر ، أخبرني أن الانتخابات كانت مثل كل الانتخابات ولم يحضر إلا القليل ، وكانت النتيجة حضور الجميع ، وتحدثنا عن زوجته . . عن الغلاء . . عن موت الفقراء تحت أقدام النبلاء . . ونظرت إلى امرأة سمينة نظرة شهوانية .

في أول لقاء بيننا في الجامعة كنت تتحدثين عن فرويد ، عن مكدونال . . كنت أتحدث معك عن الشاي والثورة والقلق والبنادق وأعصاب الرجال في المحاجر . . قلت لي أنت متفائل . . نعم أنا أتفاءل رغم كل شيء يموت داخلي وخارجي . . وأرى الانهيار بعيني وأحلم بالبناء . . آه . . إنني أحلم بأوبرا جديدة بدلاً منها رغم أنني أراها كل يوم مرتع جراج سيارات كبير إلا أن صوت الموسيقى ينبعث من باطن الأرض لهذا أحبك رغم جفاف اللحظات . . هيا عودي نتحدث . . نعيش أحلى لحظات العمر في تناول الذرة المشوية والكوكاكولا ولا شيء يهم .

ماذا يعني حبنا ؟ في الجامعة بدأ ، وفي المركز الثقافي هل ينتهي من أجل قبلتي ؟ لماذا تحبين الظلام ؟ لقد أردت أن أحبك أمام الناس وبيني وبينك .. إذا كانت التقاليد والمجتمع يمنعانا فلنغيّر نحن بأيدينا هذا المجتمع وليشنقونا على الطريق ..

زهرة عبد السميع وعمر نجيب شديدا الحب العلني .. لقد هتفنا في مظاهرة سويًا : يسقط .. يسقط .. وغنّينا سويًا :

يدك على قلبي .. يدك على أنفي .. يدك على عيني .. يدك على كتفي .. يدك على يدي فالطريق صعب ونحن زادنا الحب .. والحب .. والحب قد يكون الصراخ .. الزواج .. الجنس .. والبكاء .. التردُّد .. التجديد .. صدقيني .

تعالي إليّ بحقائبك .. ولنبدأ من جديد .. سأتزوجك ونترك هذا العالم القديم يحترق ولنغيّر عالمنا بميلاد جديد .. في انتظارك غداً ..

عمر

الرسالة الرابعة:

«حبيبي عمر»

الظل أنت .. والرعب أنت .. والاطمئنان أنت .

في هذه اللحظة سأكون قد غادرت عالمك إلى عالم آخر يسمى «فتحي المحلاوي» تاجر كبير ، مؤهل متوسط ، يستطيع أن يحقّق الآلاف من الجنيهات في صفقة ، وكما تسميها أنت : اللصوصية ، وكما يسميها الواقع : الشطارة ..

الليلة حفل زواجي .. لا تحاول أن تحضر .. أتمنى لك حياة سعيدة .. أحرق خطاباتي .. انس ما فات وستكون ذات يوم رجلاً عظيماً .

تمنياتي لك بالسعادة

زهـرة

* تعليقــات

الحفل :

في الحفل الذي أقيم لزهرة ؛ كانت باقات الزهور حولها .. كلها عليها صورة عمر .. هكذا ترى زهرة . أطلقت بكاءً شديداً .. فمسح العريس الدموع من على خدها وأطلق رجاله آلاف الطلقات في الهواء .. رأت أمامها رجال الشرطة في مظاهرات ١٩٧٢ وهي تجري وعمر معها خارج الواقعة على كوبري الشاطبي .. ورأت في منظر الدم الذي كان على السرير .. منظر الدم الذي سقط من زميلهما «نور أحمد» في أثناء جريه وهو يحمل المنشورات التي تندّد بحالة اللا سلم واللا حرب .

في البيت :

في بيت عمر .. جلست أمه أمامه تسأله : لماذا تبكي ؟! والراديو يذيع أغنياته المريضة . مزّق عمر قميصه .. سقطت أزرار القميص على الأرض ، ومزّق شعره ولطم خديه وتذكّر والدم يسقط من فمه .. دم الزفاف .. تذكّر سلاسل تقيّد زهرة على شجرة الزواج ، ومزامير العازفين وقماشًا يلف حبه ودمعة في عينها لا ترقأ .. وقوافل من الشرطة تبتسم وشاربًا يضحك عليه ورياحًا تجذبه إلى الموت .. خرج إلى الشرفة .. صرخ : إنني أحب زهرة .. إنني أحب زهرة عبد السميع . فتح الجيران النوافذ ، نظروا له .. أغمى عليه ..

الحقيقة :

جلس الرفاق في الجامعة يتحدّثون عن لغز الزواج .. عن الإحساسات المرئية .. يتغامزون ويتلامزون بينما كان يدخل الجامعة . نظر إلى الكافتيريا .. نظروا له .. ابتسموا ابتسامة تقبل .. جلسوا

حوله .. تحدّثوا معه عن الجامعة .. تحدّث عن صوت «ماوتسي تونغ» تحدّثوا عن الأيام القادمة .. تحدّث عن قناع وأقنعة الأشياء .. كل الأشياء .. قناع الموت .. البدء .. الانتهاء ..

التواطؤ :

تواطأت أمها مع أبيها على ضرورة أن تترك هذا الولد الذي يسمى عمر نجيب ، وأن البيوت لها أصول ، وأن العمر كالنقود يصرف في مصرف ، والحياة سوق ، وعملة الفتاة السمعة والأدب . وظلّت تردّد كل يوم ..

انحدار :

السقوف في المنتزه .. السقوف في الشوارع .. القاعات المستطيلة أو المربعة داخل الأدراج .. كلها كانت تتفسّخ أمام عيني عمر . سمع الجيران أنها ستسافر إلى فرنسا في رحلة شهر العسل وصفقة تجارية للزوج أيضًا ، وهو يتسكّع في شوارع الإسكندرية والقاهرة يبحث عن متنفس ليبدّد الغضب المشتعل داخله ..

الاقتناع :

سارت عربة في اليمين تهتف : انتخبوا فتحي الأسيوطي ..

وسارت عربة في اليسار تهتف : انتخبوا «علي المليجي» ، وسارت عربة في الوسط انتخبوا : «منير المحلاوي» ، وسار عمر على الرصيف يصرخ وهو يمزّق ملابسه : انتخبوا «زهرة عبد السميع لي .. انتخبوا زهرة عبد السميع » ..

صابر افندي .. طز

الحلم سيد الأخلاق .. (طز) ..

الحلم .. الحلم .. تعبت يا سنية .. ثلاثة أشهر والكهرباء منقطعة عن الحي .. سأذهب إلى سعادة المحافظ بنفسي وسأحكي له الحكاية .. لقد كتبت شكاوى إلى جميع صحف المعارضة والصحف القومية وبرامج الإذاعة ورئيس الحي ، كلهم أهملوا الشكوى ، كلهم مع المقاول الذي حفر الطريق من أجل تركيب خطوط الهاتف ، كلهم مع المقاول الذي قطع الكهرباء عن المنازل .. ذهبت إلى المسئول في وزارة الكهرباء لم يستجب وقال :

- استرح يا أستاذ صابر .. المشكلة كبيرة والحادث في انتظار لجنة من القاهرة .

لذلك قررت يا سنية أن أذهب لمقابلة المحافظ شخصيًا .. عندما تقترب سيارته من مبنى المحافظة سأجري نحوها وأقدّم له الرسالة في يده .. وقد ذيلت الرسالة بالعنوان وبوظيفتي السابقة .. رئيس قسم المراجعة «درجة أولى» سابقًا ..

وسيحقّق سيادته في الإهمال والمحافظ الرجل الذي يمثّل شخصية رئيس الجمهورية سيعاقب كل المسئولين عن التأخير وعن الإضرار والإتلاف ..

ومن المحتمل أن تنشر صورتي في صحيفة المدينة .. صحيح أنها لا توزع إلا أنني سأشتري بعض النسخ لكي أريها لأهل الحي ، ومن المؤكد أن الصحفي سيكتب تحت الصورة : هذا المواطن المخلص ظل أربعين

عامًا يخدم بلده .. أربعون عامًا وأنا أكتب للصحف والمجلات في باب شكاوي المواطنين عن كل خطأ يحدث في الشارع أو الحي أو المدينة .. صحيح أنهم يطلقون عليه في مكتب البريد (راجل ضارب) .. لأنه دائمًا يرسل الخطاب مسجلاً حتى يتأكد من وصوله. (راجل ضارب) أي فقد عقله واتزانه . إلاّ أنه لا يهتم بكلام الموظفين ..

لقد أهملت الصحافة شكواه ولذلك سيلجأ إلى سعادة المحافظ وهو يشرح له كل شيء في رسالة مطوّلة .. صابر افندي يعلم جيدًا أن وقت سعادة المحافظ ثمين جدًا .

قالو عنه :

- «صابر افندي رجل حاقد» ..

زملاء العمل حيث إنه لم يحصل على درجة مدير عام رغم أقدميته ..

- صابر افندي رجل عاقر ..

محروس ابن عم زوجته سنية قال : إنه لم ينجب أطفالاً منذ زواجه من ثلاثين عامًا ..

- صابر افندي شيوعي ..

المخبر حسنين وهو يؤكد أن له ملفًا في أمن الدولة .

- صابر افندي مجنون ثقافة ..

هذا قول شهير لعم جابر بائع الصحف الذي يجلس صابر افندي بجواره كل يوم ويشرب الشاي ويكتب له مرتجع الصحف ..

وفي نفس الوقت يقرأ صابر افندي كل الصحف ، والغريب أن صابر افندي يصدّق كل الصحف التي تقع بين يديه ويصدّق المذياع وكل نشرات الأخبار . وآه.. كم تمنى صابر افندي أن يقرأ الصحف باللغة الإنجليزية حتى يعرف رأي الإنجليز والأمريكان في مشاكل الدنيا ، وكم مرة سأله عم أمين الحلاّق :

- ما رأيك يا صابر افندي في مشكلة كذا ..

ويبدأ صابر افندي في سرد الآراء : صحيفة كذا تقول كذا ، وتقول محطة كذا كذا . .

وعندما يسأله عم أمين الحلاّق ما رأيك أنت في كل هذا ؟

كان يحك أنفه بإصبعه وكأنه لا يصغي ولا يسمع . .

من المفروض أن تعرف الناس رأيه وأن تقرأ أفكاره . . حتى عندما أخبروه في آخر يوم له في الوظيفة :

– صابر افندي . . لقد تمت إحالتك للمعاش . .

لم يغضب . . لم يفرح . . لم يتأثر حتى وجهه .

قال موظف فهلوي : الرجل أصابه الذهول .

قال آخر : رجل مؤمن .

قال آخر ملتح : لا يصلي ولا يتحدث في القرآن . . رجل كافر .

«طول عمر صابر افندي لم يأخذ رشوة أو تقرّب من المدير العام . . وكان دائماً مثالاً للموظف النشيط . . ينجز أوراق الجمهور الكريم ويغضب من جهل أحدهم باللوائح ، ويشرح له ويفسّر له ويظل طوال ساعات العمل لا يتحدّث إلاّ عن العمل وللعمل ومع جمهور المراجعين» .

قالت سنية زوجته : أحالوك إلى المعاش ؟ يا مصيبتي . .

لم يهتم وأخرج من لفافة حزمة فجل وقام بغسلها وأحضرها على المائدة ليأكلها مع العدس . . طول عمره يحب الفجل منذ أن كان بمليم واحد إلى أن أصبح ثمنه عشرة قروش . .

«اللحمة مش مشكلة . . الزيت مش مشكلة . . السكر مش مشكلة . . المهم أن ينتظم المجتمع وينصلح كل شيء حتى تحل كل الأشياء . . الأكل . . الأكل . . كل الموظفين يتحدّثون عن الأكل والغلاء . . إلاّ هو . . صابر افندي» . .

لصابر افندي (حلتان) حلة للصيف وحلة للشتاء .

منذ خمس سنوات لم يغيرهما ..

كل خمس سنوات يقدّم على سلفة حتى يشتري الحلتين ولا يتقدّم بسلفة من أحد الزملاء ولا يدخّن إلا سيجارتين في اليوم .. بلمونت .. رخيص لكن ممتاز .. المستورد لا يحبه مع أنهم يقولون إنه نظيف ولا يحب أن يجرّبه ولا يقبل من أحد سيجارة ولا يغيّر الصنف ..

غداً سيذهب للمحافظ ليشرح له كيف أن قطع التيار الكهربائي الذي تسبّب فيه المقاول قد أصاب الثلاجات والحياة بالضياع الكامل وأن الطعام قد فسد ، وأنه الآن لا يسمع نشرة الأخبار وينام مبكّراً .. سيشرح لسعادة المحافظ بالتفصيل في الرسالة ، ولو طلبه سعادة المحافظ سيذهب إليه وهو يحمل له الدوسيه الخاص بالشكاوى وكيف أنه اكتشف أن عمال المقاول يعملون ساعة واحدة فقط ويتركون العمل وأنه كتب شكوى إلى وزير العمل من قبل وجاءته رسالة باسم مدير مكتبه وقال فيها نشكرك على اهتمامك .. شكراً .. وهو سعيد بهذه الرسالة جداً ..

«منذ ثلاثين عاماً .. نظر إليه الطبيب وقال : أنت ضعيف» .

ليلتها لم يقترب من سنية .. وأخذ يبكي في السرير ، وعندما سألته : ماذا بك ؟ قال لها في هدوء : خلاص يا سنية لا تذهبي للطبيب .. أنا لن أنجب أطفالاً .. هل توافقين ؟ إذا أردت أن تعيشي معي .. أهلاً بك ، وإن أردت الطلاق فهو لك يا بنت الحلال .. يومها بكت سنية واحتضنته .. لا ياصابر افندي .. دا شيء بتاع ربنا ..

من يومها تغيّر صابر افندي ولم يعد يهتم بأي شيء يقال عنه ، ولا من أي شخص حتى ابن عمها محروس الذي كان يطمع فيها . لم يكن يهتم بنظراته القاسية له وهو يسأل : متى ستحضرون لنا أطفالاً نفرح بهم ؟ وكانت سنية ترد بهدوء : لما ربنا يريد .. نشرب شاي أحسن .

في الصباح وقف صابر افندي أمام مبنى المحافظة ، وعندما لاحت عربة سعادة المحافظ من بعيد تقدّم نحوها وهو يمسك الخطاب ويلوّح .. وبينما هو يعبر الشارع انزلقت قدمه في قشرة موز. هدأت عربة المحافظ وتقدَّم الشرطي الذي يقود الدرّاجة البخارية وأمسك الرسالة وانطلق موكب المحافظ مع صوت البروجي ورجال الشرطة يؤدُّون التحية.

التف الناس حول الرجل وهو يحمل في يده حقيبة صغيرة :

– يا ساتر يارب .

– إسعاف .

– يا ناس ابتعدوا .. الرجل وقع على رأسه ..

«أشار أحدهم إلى ضرورة أن يخلع الرجل الجاكت» .

ببساطة شديدة مد اللص يده ليسرق الحقيبة التي يحملها صابر افندي وجاكتته ..

في الحقيبة كل أوراق صابر افندي وفي الجاكت بطاقته العائلية .

قال أحدهم :

– اخلع حذاء الرجل .

خلعوا الحذاء وفي سرعة شديدة اختفى الحذاء !

تقدّمت عربة الإسعاف ونزيف صابر افندي يسيل على أسفلت الشوارع التي كان يسير عليها ويحبها ويعشقها .. مدينة الخمسة عشر مليونًا .. القاهرة الجميلة ..

(في المستشفى) :

– الاسم :

فتّشوا جيبه لا توجد بطاقة .

في غرفة الحوادث نظر الطبيب وهو يمسك يده ..

– الراجل مات .. جايبينه ليه ؟! فين أهله ؟

.. لا أحد ..

.. لا أحد .. في كلية الطب .. في المشرحة ..

التف الطلبة حول جثة صابر افندي وهي عارية ..

– سنية ظلت طويلاً تنتظر .. لم يعد ..

قال أحدهم : لقد هرب من البلاد .

قال آخر : لقد تزوج من أخرى ولم يعد .

قالت سنية : سيعود .. ربما أخذه المحافظ للسيد الرئيس .. انتظروه في التلفزيون ..

قال أستاذ التشريح في كلية الطب وهو يمسك المشرط :

– هذا هو الإنسان كما ترونه الآن أمامكم .. سنبدأ اليوم بتشريح الجثة .. انتبهوا !!!

أحزان مواطن بلا عنوان

هنا في تلك المدينة التي يحمل كل حجر فيها قصص مئات الشهداء.. هنا البعوض طعام الشرطة والذباب طعام البشر. ساعات وأنا أدور في تلك المدينة المتسعة ..

- اسمك ؟
- زكي عثمان (١) .
- ماذا تريد ؟
- أبحث عن حجرة .

نامت شواطئ بورسعيد وسواحل المدينة الفزعة في جفنيه .

- هناك حجرة بها أربع أسرّة .. ستدفع خمسة عشر قرشًا .
- موافق .

صعد إلى الغرفة .. حاول أن ينام .. حاول أن يستريح .. لكن عينيه لم تعرفا للنوم مذاقًا . نظر إلى السرير الذي بجواره .. سأل الرجل البدين الذي راح يلتهم الطعام وكأن شاربيه يأكلان معه : أين وزارة الحربية ؟

- لا أعرف .

نظر له مبتسمًا :

- وأين وزارة الإسكان ؟
- لا أعرف .

قال الرجل الثاني الذي راح يدخّن :

- وزارة الحربية في ميدان لاظوغلي على ما أظن ..

نظر الشرطي الواقف عند باب وزارة الحربية في وجه زكي ثم هلّل ضاحكًا :

- زكي .. غير معقول ..

ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

- أقابل الوزير [٢] .

- الوزير مرة واحدة ؟!

- نعم .

- خير ؟

أشار زميله الشرطي عليه بأن يكتب للوزير شكواه في خطاب وينتظر سيارته وهي تمر ويلقي بالخطاب في السيارة لأنهم لن يسمحوا له بمقابلته داخل المبنى ، ولن يخطو خطوة واحدة داخله .. أمسك الشكوى ثم مزّقها وأخذ يجري في الشوارع حتى وصل إلى ميدان عرابي فنظر أمامه ليجد عرابي وقد وقف على التمثال فصرخ يا عرابي .. يا أحمد يا عرابي .. [٣]

إنه في يوم الخامس والثلاثين من الشهر الرابع على ضفاف النيل جلس ومعه الحزن والخبز والأشواق .. نظر للنيل وبكى ..

مضى عام ..

عاد بعد حرب ٧٣ إلى مدينة بورسعيد .. عاد محمّلاً بآلاف الأحلام كي يشاهد منزله ومنزل أسرته .. فلم يتعرّف على الشوارع . لعل الحرب غيّرت شكل ونظام الحي والبيت ..

دار حول الحي دورة .. ثم دورة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة .. فلم يجد المنزل ولا الحي . سأل الناس .. وجد وجوهًا مختلفة .. رجل أجنبي ورجل يرتدي ملابس غريبة . سأل أحدهم صارخًا :

- هذه البلد اسمها بورسعيد [٤] ونحن في مصر ..

بكى وجرى إلى البحر [٥] .

إنه في اليوم السادس والأربعين من الشهر الرابع عشر .
أمسكت المذيعة الميكروفون وبدأت تتحدث . .
المذيعة : نحن الآن في شارع قصر النيل قابلنا المواطن . . اسمك ؟
زكي : زكي عثمان .
المذيعة : ما الذي تحمله ؟
زكي : خطاب لمسئول في وزارة الشئون الاجتماعية .
المذيعة : ما رأيك في القاهرة ؟
زكي : مرتبي عشرة جنيهات ، وصدري يؤلمني من حرب أكتوبر ، وأدفع ثمانية جنيهات من مرتبي للعلاج شهريًا .
المذيعة : تحب تسمع أغنية إيه ؟
زكي : أنا ماليش بيت ولا مرتبي بيكفيني يا هانم . . وأنا حاربت في أكتوبر .
المذيعة : إنه بطل من أبطال حرب أكتوبر الذين رفعوا رؤوسنا عالية . .
زكي : ليس عندي منزل .
المذيعة : إنه يمجِّد القيادة التي رعت كل المقاتلين .
زكي : يا ست هانم .
المذيعة : أظن عندنا أغنية ماتقولش إيه اديتنا مصر . . قول حندي إيه لمصر .
(ترك الميكروفون . . وجري . .)
«بصق على المصعد والمبنى وكل من حوله . . آه . . يا ليتني لم أولد يومًا ولم تلدني أمي . . ليتني لم أعرف أن كل شيء لا يساوي أي شيء أو كل شيء ليس أي شيء وأننا مخدوعون يا وطني» .
جلس على باب المدرسة يعمل بها في قرية المنصورة . . صرخ الناظر في وجهه :

- يا ولد يا زكي .. تعالى اسمع ..

جرى داخل غرفة الناظر ..

- اجلس واسمع ..

جلس واستمع إلى الناظر الذي أخذ يسمع الراديو ..

تأمل الناظر وجهه وصاح :

- ها أنت أهه في الإذاعة يا زكي .. والله واتشهرت يا ابن الكلب .

هامش :

١ - زكي عثمان أحمد .. جندي عام ١٩٦٦ براتب قدره جنيهان مصريان ، ثم انتهت مدة خدمته عام ١٩٧٤ وراتبه سبعة جنيهات .. حوّل للتحقيق مرتين لركوبه القطار هاربًا دون تذكرة ، وعند سؤاله أجاب إنه يشتاق إلى أمه ويريد أن يراها وليس معه نقود ..

انظر تاريخ الـ ٤٠ مليون مصري .. الجزء الثاني .. معاناة العرب ص ١٩٤٨ ، فصل المرارة .. تأليف : الشعب العربي .

٢ - الوزير .. زارهم في جبهة القتال .. قال : هم أبناء الوطن .. ويشرّفه أي فرد منهم يحتاج إلى شكوى فبابه مفتوح لهم في أي وقت ، ويومها أشار إلى زكي قائلاً : «هذا المقاتل هو شرف أمته» ولم يدر زكي أن هذه الكلمة لا تعني زكي وأن هذا اسم إشارة يشار إلى المقاتل المعنوي وليس المادي ..

المصدر السابق «فصل الخديعة» ١٩٥٦ .

٣ - نظر إلى التمثال صارخًا :

أنت يا عرابي .. لقد حاربت بإخلاص ولم أتقهقر ولم أتراجع ..

فأجابه :

- صار أبطال الأمس خونة اليوم .. وخونة الأمس صاروا أبطال اليوم .. لا تحزن يا بني إن الله معنا ..

كتاب (خديعة عرابي والمواطن العربي) .

طبعة علي خنفوس في سنة ١٨٨٣ في بلاد الإنجليز ص ١٩٧٣ .

٤ - كانت مدينة بورسعيد قد تغيّرت في سياسة الانفتاح ، وكان منزل زكي قد هدم وأزيل تمامًا .. وعندما سأل المقاول عن اسم صاحب البيت ذكر له اسم رجل أجنبي ، وعندما قال له : لماذا تسأل عن اسم صاحب البيت هل تريد أن تصل عنده ؟

أجابه قائلاً : لا .. إنه بيتي . فضحك المقاول .. فصرخ في وجهه : إنه بيتنا واسأل خالتي أم محمد التي كانت تسكن بجوارنا واسأل عم إبراهيم البقال الذي لا أجد دكانه الآن . فقال له المقاول : والحجّة .. أين حجّة البيت ؟ أجابه : كانت مع أمي التي لا أعلم أين هي .

من كتاب «الاستعمار الاستيطاني على حساب المواطن الغلباني» تأليف الشعب المسكين في بورسعيد والسويس - باب الانفتاح - فصل الضحايا - ص ١٩٧٤ .

٥ - لمن أشكو يا بحر ..والبحر به المراكب .. والمراكب حملت الملك فاروق والإنجليز .. والبحر فيه أسماك والسمك أكل جسد عبد الناصر .. وبعد أن أكل السمك جسد عبد الناصر .. أخذ السمك يأكل بعضه بعضًا .. وعروس البحر ملكت أسطولاً بحريًا وبريًا وجويًا ..

لمن أشكو ؟ (كتاب عباد الله في بلاد الله .. باب الشكوى لغير الله مذلّة) ص ١٩٧١ .



على ضفاف الخليج

(مشهد ١) :
أستأذنك في السؤال .. هل تسمعني ؟
- النيل هل مازال بخير ؟
- لم تعرف معنى الحرية .
- الأهرامات هل بيعت حقًا ؟
- أبوك باع الحديقة ورحل .
- كم الثمن ؟

قال المدرّس : غيّرت خريطة العالم .. ضربني المدرّس على يديّ عشرين ضربة، ورسمت خريطة الوطن العربي صفعني على وجهي قائلاً : أنت تغيّر وجه الحقيقة . وعاقبني لأني رسمت آبار النفط في الوطن العربي ونسيت أن أرسم الوطن العربي .. بصق المدرس في وجهي ووضع صفراً لي في كراسة التقديرات .
- من أية شجرة ولدت ؟
- ثمن الإنسان أقل من ثمن السيارة .
- لا تشرب الشاي في المساء ولا القهوة .

نادتني أمي : لماذا تخرج في المظاهرات ؟
(شوارع القدس القديمة .. قديمة كل الشوارع .. لكن الرجال العصريين تأتيهم العادة الشهرية - ويصابون بالخرس في لحظة المواجهة.
آه يا سلوى .. عندما مات صديقي الفلسطيني في بيروت أدركت أن الكلمات حبلى بالدم الكاذب وأن الشهداء جسور يعبر فوقها الطغيان

والأعلام التي نرفعها ليس إلا دخان سجاير» ..

- منذ متى وأنت هنا ؟
- لا أعرف .
- أبوك ؟
- شيخ صالح .
- أمك ؟
- فلاحة بسيطة .
- اسكت .
- أسكت .

(مشهد ٢) :

أمك كانت الدولة .. أبوك كان الشرطة والإخوة كانوا الروتين والعادات .. أنتهز يوم السبت لأخطو على كتف الخميس وأرتل في صلاة الجمعة كل الآيات النورانية وأسير على اللسان الممتد في جوف الخليج ، رعشة على ضفاف الخليج .. شوارع قريتنا كانت تعرفني .. طفل ساذج .. حائر .. كنت أخاف السعارة، وأخاف من صوت الخفير .. وأخاف الظلام .. لكني ذات مساء قررت أن أغزو عالم الظلام وأن أخرج من جوف الليل وأسير في شوارع القرية . لوركا يعيش مع الغجر ونحن في الإسكندرية عشنا في حي الغجر .. كانوا يتشاجرون كثيراً .. يثرثرون كثيراً ويضحكون كثيراً وعندما يتشاجرون يصرُّون على تصعيد الشجار حتى تحضر الشرطة وعندما تحضر الشرطة يتحدون لمواجهة الشرطة ويصرُّون على قتالهم بشكل الحروب الأهلية في إسبانيا .. وعندما كنت ألعب مع أطفال الغجر تعلّمت الشراسة المبطّنة .. فالطفل الغجري يبدو أنه بريء وساذج وعندما تتعامل معه تكتشف أنه شرس .. الشراسة لغة خاصة ليست بالعضلات ولكن

بسرعة المواجهة والرد . . هكذا تعلّموا في الحارة في الإسكندرية . .

«الحلم صار مدخنة . . وكل الحقول علّقتها في شاربي النحيف وحملت الوطن على ما في وصوت عبد الله النديم على الربابة لونت به كل بيوت الفلاحين . . في قريتنا صرخت ناهد في وجهي» :

– البوليس . .

لا أعرف ماذا أفعل ؟ لم أسرق شيئًا . لم أفعل شيئًا . . دخل الضابط غرفتي . . أخذ ينقّب ويحفر في رأسي . . أخرج أغنية للنديم وللشيخ سيد درويش . . أخذ الشرطي يفتح صدري وجد آلاف الصيحات التي جمعت منذ عام ١٩١٩ «نموت نموت وتحيا مصر» .

– لا توجد مستندات رسمية .

– خذ عيّنة من رأسه ومن صدره .

يدخل في رئتي النيل . . حاول أن تقول شيئًا . .

خرجت في الشارع . . مقهى الصعايدة في الشاطبي . . جلست . . أخرجت علبة سجاير من جيبي (ثمنها ٢٥ قرشًا) . . طلبت الشاي . . ارتعدت فرائصي . . الهواء يصنع كل شيء . . الساعات تمر مثل العراء اللا نهائي . . سنقفل يا أستاذ . . خرجت من المقهى لأجلس على الرصيف . .

(مشهد خاص) :

محفوظ أنا في ملفات السادة الكبار . . معروف في حافظة السادة . . الكبار . . قام من على مكتبه . . سقطت دمعتان على الأرض . . نظر إلى كل من حوله . . أخرج جيوبه الخاوية من أية قيمة . . نظر زملاؤه له . . قال :

– أنا إنسان يا ولاد الـ . . . .

ضحك البعض والبعض الآخر كتم الضحك والبعض اندهش . . ماذا يجري ومن هم أولاد الـ . . . أمس ، قالوا له إن لم تدفع الإيجار ستُطرد .

- ماذا جرى له ؟

- مرتبه لا يكفيه وزوجته تنظر له على أنه رجل ناقص لأنه لا يعرف كيف يتاجر وكيف يكسب من شغله ..

لا يعرف الرشوة .. الرشوة حرام ..

نظر له الولد إبراهيم وقال : ماذا حدث يا عم منصور؟ بكى الرجل بكاء الرجال الشرفاء .. نجوم تتساقط في حقول الفردوس .

- لا تفكّر في الغد .. دعك من المشاكل .

ازداد الرجل بكاء بينما عربة الإسعاف صوتها يقتحم الزحام ..

- ماذا حدث ؟

- عم منصور عنده مغص ..

(مشهد خارجي) :

خرج على الشارع ينظر إلى من حوله يحدّق في الفراغ .. احترف اللعبة وفهم معنى الشعار المطروح والفرق بين الزيف والحقيقة . كل المساكين لو صرخوا لغيّروا العالم .

- تستطيع أن تغيِّر العالم بيديك .

قالت له سلوى وهو يسير بجانبها على النيل ..

- العالم لا يستطيع أن يغيِّره فرد يا سلوى .. انظري ..

صعد فوق الرصيف وعلى النيل صرخ بصوع عالٍ :

- أيها العالم توقف .. هل تسمعني ؟

لم يسمعه أحد ، العربات تمر بسرعة والأشجار ناعسة وبائع الجيلاتي يجيء من بعيد يمسح عرقه دون أن يلتفت إليه .

- هل عرفت يا سلوى لا أحد يسمع أحداً .

أمسكت بيديه .. بكت .

فلاح أنت .. وتعرف أن الرجال لا يبكون بسرعة ..

لماذا بكى الرجل اليوم .. هل على خلاف مع زوجته ؟ أم مع حذائه ؟ الحذاء الممزَّق يعني حاجته للمال .. لماذا بكى يا سلوى ، وهل .. هل .. هـل ..

انظري يا سلوى .. العـرق الأسـود يغطّي الأشـيـاء واللون الأبـيض يتصارع معه . نظرت له :

– هل جننت ؟

علينا أن نعلن عن جمعية محاربي اللون الأسود للحفاظ على اللون الأبيض حتى لا يستطيع ...

في صباح اليوم التالي .. ضربت سلوى .. من .. إلى ..

جلست .

– صباح الخير ..

لم يرد .

نظرت له : ألم تسمعني ؟

قدَّم إليها جريدة الصباح .. نظرت .. صرخت ..

وجدت العنوان الرئيسي في الجريدة ..

«القبض على جماعة حماية اللون الأبيض ..

الحكومة تدخلهم مستشفى المجانين» ..



رجل يسير في صندوق

«النيل تاه .. خرج الشعب المصري والعربي يبحث عنه وأعلن الشعب العربي أن من يجده يأخذ رأس فرعون وكل الفراعنة المتخفين في أراضي العرب الواسعة» .

(من كتاب أبناء الله في مصر) .

صرخت فاطمة : يا إبراهيم .. أسمعت ؟ .. ألم تسمع ؟

– يا نهار اسود .. النيل تاه !!

في اليوم الأول : صرخ الشعب من المحيط إلى الخليج

في اليوم الثاني : قامت المظاهرات

في اليوم الثالث : خرجت التصريحات

في اليوم الرابع : عقدت المؤتمرات

في اليوم الخامس : اغتصبوا جنوب لبنان

في اليوم السادس : الصمت خير من الكلام

في اليوم السابع : وضع إبراهيم الكرة الأرضية وأخذ يبول عليها

حمل بندقيته وعصاه وزاده على كتفه وسار في الصحراء ..

ارتدت الأمهات ملابس الحداد والأطفال يصرخون والرجال على موائد الدهشة يثرثرون :

– هل يكون قد ذهب إلى تمثال الحرية ؟

– لابد وأنه في زيارة لفلسطين .. هل ذهب إلى جنوب لبنان ..

– هذا غير معقول ..

فاطمة في الأرجاء تصيح : إلى أين ذهبت يا إبراهيم ؟

«كحل عيونه بسيناء وقطف وردة من جبال الجولان وحاول أن يغني بصوت مرتفع .. لكن الصوت قد بح في زفة الزيف والمزيفين» .

قالت العرّافة له :

– النيل لا يحب الرجال المخنّثين

– كيف إذن أرحل ؟

– لا تسأل .

– ماذا أفعل ؟

ابعث ..

«شهدت فاطمة» أشعلت لمبة الغاز وأشواقها ..

إبراهيم والنيل والجوعى الذين خرجوا يمسحون الدفوف ويسألون الله أن يعيد إليهم النيل والنسوة اللاتي أخذن يغنين .. كان الغناء نواحًا وصار النواح غناءً . جلست فاطمة في أحد الأركان تتحدّث مع الأطفال وتحكي لهم قصص النيل وكيف أن سيدنا موسى سار في الصندوق وأن زوجة فرعون كانت جالسة وشاهدت الصندوق ..

إعلانات مبوّبة :

كتب : علي مختار :

أبلغت سيدة عن وفاة زوجها كمدًا وحزنًا بعد أن ضرب نفسه بالحذاء ١٠٠ مرة وبالبحث عنه قبل أن يخرج في الصباح كالمعتاد وجد أن :

النشيد الوطني يأكل أغصان الزيتون والساحة خاوية .. أخذ يبحث عن عمل بشوارع المدينة ، الأسواق بين المشاعر النبيلة والمشاعر الخسيسة .

– صبيحة ..

قفزت من على السرير وهي مرتبكة ..

– ماذا حدث ؟

– أخذ الحصان .. أخذوا المصابيح .. هدموا بيوت الفقراء على الطريق .. قالوا إنها عشوائية .. كل الوطن عشوائي .. كلنا نحب العشوائية ..

ماذا تقول ؟

نامت قدمه .. نظرت إليه .. هل أصابه الجنون ؟

«بينما كان يسير في الصباح أمسكوا به .. لم يكن معه هوية .. لم يعرف معنى كلمة تصريح سفر .. حتى إنه خاف أن يسألوه عن قراءة الجريدة التي تحت إبطه . جرى .. جروا خلفه .. ضربوه .. عشرين ضربة .. صارت جثته طول الشارع .. لم يحن رقبته .. وعاد» ..

– من الذي ضرب الحصان ؟

– جنود السلطان قمر الزمان .

– لماذا ؟

– لم أعرف .

لم يدر الغبي أنه في الصباح حمل تحت إبطه جريدة الأماني التي تتحدّث عن الشوارع الغاضبة وعن خفايا المظاهرات وعن السجون وعن اليهودي السفّاح وأن هذه الصحيفة منعت وهو لا يدري (مغفورات) .

خرج المواطن في صباح ١٩٤٨ لم يعد إلى وطنه .. كان يرتدي حلة عربية ورقم بطاقته خمسون ألف .. عمله في محجر .. في مصنع .. في مخبز ..

فلسطين القلب .. مصري اليدين والقدمين .. مغربي الجسم .. خليجي الصوت .. جزائري العين .. ليبي الوجه .. عراقي الحلم وهو تحت كفالتنا .. يحمل تصريحًا ويحمل صندوقًا جوفه مليء بمئات التأشيرات والقرارات والتوصيات فمن يجده يتصل بالبوليس الدولي ، ومن يتستّر عليه يتحمّل نتيجة ذلك .

جامعة الدول العربية ..

النبي الطفل في صندوقه النيلي .. نظر إلى الناس وتكلم طفل رضيع :

– فرعون باع النيل يا ناس .. فرعون باع النيل ..

قالت الحاشية :

– فرعون خصخص النيل .

«دق الباب»

فتحت فاطمة بسرعة وبلهفة .

وجدت الشاب الأسمر الوسيم أمامها ..

– ماذا تريد ؟ من أنت ؟

خبئيني .. خبئيني .. خبئيني ..

– من أنت ؟

– أنا النيل .

صرخت .. فزعت .. رجعت إلى الوراء ..

أين إبراهيم ؟ أنت النيل !! ذهب إبراهيم يبحث عنك ..

جرت .. جروا .. ذهب .. ذهب يبحث .. يبحث .. يبحثون عنك، خبئيني .. خبئيني ..

دخلت الشرطة خلفه .. أمسكوه .. رفض أن يخرج .

تمسّكت فاطمة به – طعنوه .. ضربوه .. وضعوه في جوال .

في الصباح .. كانت النسوة من حولها يتحدّثن عن فرعون البطل الذي أعاد النيل بعد عام .. وأبطل كلام الناس .. النيل موجود ولم يبعه أحد .

فاطمة تجلس أمام الباب وإبراهيم لم يعد ..

مر عامان ..

فاطمة اكتشفت أن النيل غاب وأن الذي يجري في المجرى الآن هو السراب .. لا ماء فيه ..

مر عام ثالث ..

عاد إبراهيم وأخبرته فاطمة بكل شيء ..

زرع الأرض بلا ماء وحصد الهواء حيث أصبح يباع في الأسواق السوداء الهواء .. الناس تشرب هواء وتأكل هواء ..

وبعد موت الحاكم بأمر الله ..

أصيبت مصر بالمجاعة والناس أخذت تجوع ..

وكانت مصر تأكل الفئران والسبب الجوع حتى جاء بدر الجمالي محمّلاً بالقمح إلى مصر ، خرج المصريون يصرخون وإبراهيم يصرخ : هذا حكم فرعون .. ألم أقل لكم إن النيل غير موجود والقمح يأت من بعيد ..

سيدنا في المباحث العامة

قفز النهر على صدري .. نامت يافا على كف الحزن .. علّق الطفل خالد القفص على صدر الفضاء .. تحرّكت يدي ببطء تعانق آخر منحنى في القرية .. وداعبت رؤوس الأطفال التي تلعب أمام منزل أم إسماعيل.

صرخت في وجهي :

– إنهم قادمون .. إنهم قادمون ..

لم تكمل حروفها .. تسمّرت الكلمات على الشفاه .. وصلب أروع ما فيها وهي ابتسامتها الطبيعية كشتاء دير ياسين ..

دخل الرجال الثلاثة .. فتشوا المنزل .. كل المنزل .. لموا كل الأوراق .. مزّقوا كل شيء حتى العروس التي تنطق بابا وماما وكانت تريدها ابتسام ابنة عم منصور زوج أم إسماعيل ابنة مأساة ..

اسمها فلـ .... سـ .... طـ .... يـ .... ن

(ألقى الكاتب كل أوراقه ومزّق ما سبق وخرج إلى الساحة ليشتري سيجارة قد تشعل همومه المدنّسة بين أصابعه بين أفكاره وتهز في أعماقه بقايا صور الأيام السابقة) كان الكاتب أنا ...

اسمك

– ....

عمرك

– ....

الحالة الاجتماعية

– ....

منذ متى وأنت مع الشعب الفلسطيني ؟

- ....

دعك من كل هذه الأشيـاء .. نحن في حالة سـلام .. نم وارتح .. نم في أمان.

- ....

اخترق صوت المغنى الساحة وصوت فيروز يغيب في شمس الألحان المزيّفة وتاجر المخدرات يشد أنفاسه الكبرى ..

«اشرب يا رجل».

أي رجل أنا وأي رجل أنت .. نامت القدس على أنفـاس العسـاكـر الصهاينة .. نامت سيناء تحت إبط الإنذار المبكّر ..

آه .. حاول أن تخرجني من خانة المسافة بين الطريق الصحراوي والزراعي لمصر .. تعطلت سيارة السيدة الرقيقة.

وقفت .. نظرت له - للكاتب - قالت هي: يمكن أن أتصل بالتليفون.

هامش

«الريح على أبواب أيلول .. قطعوا بالأمس أيدي الأطفال».

قال : هي فلسطين بلد أبيك أم أنت فلسطيني يا ابن الـ ...

فذلكة

«نظر عبر الصحراء .. جاءت سيارة بها رجال أخذوها أمام الناس .. ركبت عربة سوداء أمريكية الصنع وانطلقت».

المرافعة

«عبر مسافات الطريق كانت تتحدّث عن أبيها الفقير .. عن كونها مدرِّسة في المرحلة الابتدائية في قرية بجوار الإسكندرية وأن التعيين أتى إليها في القاهرة فرفعت شكوى للوزير - رضي الله عنه - ولكن الوزير

رفعها لمجلس الوزراء - رضي الله عنهم وأرضاهم - لكنهم رفضوا الطلب بحجّة أن المدرسة تحتاج إلي مدرّسين في تلك الفترة» .

سألته .

يقول السائق : الأستاذ إسكندرية أيضًا .

قال الأستاذ : أنا الكاتب وهي المدرسة الفقيرة .

نعم .. ضحكا

على باب زويلة علّقوا جثمان طومان باي .

على باب التاريخ علّقوا آيات الخديعة للفقراء .

نظر السائق إليها : فلنشرب شاي طنطا .. ضحكنا ثلاثتنا ..

أنا مهموم .

هي شكوي

هو مرحلة لمدة ٣ ساعات .

- ....

الشاهد «جاء بالعربة أربعة رجال» .. أخذوها من أمامنا وجذبوها من يديها وأدخلوها السيارة وانطلقوا ..

- لون السيارة : أخضر .
- رقم السيارة : ١٣٣٥ .
- نوع السيارة : أمريكية .
- حالة السيارة : مسرعة .

رفعت الجلسة

هنا .. هناك يوجد في تلك البقعة من العالم أسرار .

سر الخمر والاحتفال .. سر الانتظار حتى ساعة متأخّرة .. لغانية على الطريق .

سر الباقات والحفلات الدبلوماسية .. سر الابتسامة المزيّفة للعلاقات الاجتماعية ..

سر الكلمة الغانية والفكر القواد والأفكار المنحلّة .

محكمة

«بعـد الاطلاع على القـانون ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٧٣ وجـد أن المدعـو أحمد منصور متهم بحب

فلـ- .... ، - ....

وقد ثبتت التـهمة عليـه بأنه سـاهم في اختطاف واغتصـاب امرأة بالإكراه في الطريق العام و ....

وتبـعًا لذلك قـررت المحكمـة تبـعًا لقـوانين الحرية وقـوانين الطوارئ : شنق كل أفكاره وحرق كتبه في ساحة هيئة الأمم المتحدة .

رفعت الجلسة

صرخ أحمد منصور :

يحيا العدل - .... يحيا العدل فلسطـ ....

الكويت ١٩٧٨م

الشمـس

الإهداء إلى : محمد الأمير القاضي

الفجر :

وتحرّكت في الحارة أصوات باعة اللفت وعربات الخضار ، بينما كان شيخان يقطعان الطريق إلى محطة الرمل .. كان الشيخ الأول عجوزًا ، والشيخ الثاني شابًا في الثلاثين من عمره كلاهما يخطو إلى الأمام بينما أنفاس الفجر تلهث خلفهما .. ملوّحة لآخر النجوم التي تنزلق في ضوء الأفق ، وتحمل يد الشاب الحقيبة الكبيرة وكتفه الأيمن يصرخ لكن الرجولة تفرض عليه أن يكون رجلاً وخاصة أن أمه أتت إليه معبئة أباه وزوجته بالفطائر والعسل والجبن والبيض .. هكذا كانت دائمًا تحاول أن تملأ بيته بالخزين ، حتى عندما كان طالبًا وعندما كان وكان ..

الساعة السابعة :

مد يده إلى الحقائب .. أعطاه شلنًا ، نظرت الأم إلى مكان الحقيبة .. حيث يوجد المكان المخصّص للحقائب .. خلف العربة صوت رعشة برد من البحر في جسد الابن .. نظر لأمه :

– لماذا تحملين هذه الحقيبة دائمًا يا أم محمد ؟

– بها الكفن .

– كفن من ؟

– كفني .. اشتريته منذ ثلاث سنوات ، أحمله أينما سرت حتى إذا مت لا يتحمّل أحد ثمن الكفن ، وفي الحقيبة أيضًا يا محمد ثلاثة عشر

جنيهًا ثمن الحانوتي وأجرة الخشبة والرجال الأربعة الذين يحملونني لأني أعلم أن الرجال هذه الأيام يهربون من حمل الموتى فوضعت في الحسبان تأجير أربعة رجال من الحمّالين الشداد ..

– كفّي يا أمي عن هذه الأوهام .. لماذا تفكّرين في هذا ؟

– الموت قادم .. قادم ..

العجوز :

كنت يا أم محمد تدعين بهية وتحملين على رأسك منديلاً مشغولاً بالدانتيل والخرز وتضعينه حجابًا على جبينك في اليمين .. وتتشدّقين باللبان وتغنين خايف أقول اللي في قلبي ، وكنت تسهرين على الترعة في الغروب تختالين وكنت أجمل بنات القرية ..

وها أنت قد صرت عجوزًا تركبين هذا الأتوبيس من طنطا إلى الإسكندرية .. كم مضى من الوقت وأنت تعيشين بعد موت أبي محمد في حادث الإضراب .. كم كان غبيًا .. أتذكرين يومها لم يكن معك ثمن الكفن وظلت جثته أكثر من عشرين ساعة .. يومها خاف أهل القرية أن يدفنوه أو يتبرّعوا لك بمبلغ .. لولا الشيخ عبد الله الذي اشترى الكفن من طنطا وأتى به ودفن الرجل .. لا تجعلي أحدًا يحتار في دفنك .. ها هي الحقيبة .. تحملين الكفن معك .. لا تخافي .

الأتوبيس :

العربة طويلة وصوت المحركات والسائق قد بدأ يغني في أثناء الطريق الزراعي، وها هي الشمس قد سقطت وأخذت تحتضن الحقول بلهفة الشاعر إلى الحيوية .. وقد جلس في آخر العربة الكمساري يتحدّث عن طابور الجمعية الذي قتل فيه رجل بالأمس .. وقد جلس خلف المرأة العجوز شابان يبدو عليهما القلق .. كلاهما ينظر للجريدة .. هل قرأت ؟

- نعم ..
- أبوك قد قبض عليه .. مشتركًا في تنظيم .
- أبوك لا يعرف إلاّ الصلاة ..
- الصحف تقول هذا .
- ملعونة كل الصحف ..

العجوز :

ها قد أصبح الفتى رجلاً .. محمد أصبح رجلاً .. تخرّج من معهد التربية وتزوّج من فتاة طيبة وله ولد جميل يدعي «إسماعيل» يشبه جده في الأنف والفم .. ها قد أصبحت وحيدة في الدار «لا يأتي إليك ابنك إلاّ مرة كل عام .. في إجازة نصف العام» .. إنهم يطلقون عليك «أم الافندي» .. نعم ها قد أصبح محمد «افندي» مدرّسًا في مدرسة بالإسكندرية وتزورينه كل عام مرة في الإجازة الكبرى في الصيف .. عندما مات أبوه لم يره .. يومها كان في المدرسة في الإسكندرية .. يومها كان لا يعرف أمه أو أباه وعندما عرف بعد الزواج كيف مات أبوه .. مكث ولم يتكلم وكأنه قد أصيب بخرس ساذج .

الأتوبيس :

بدأت العربة تقطع المسافات الكسلى بسرعة .
- هل تعتقد أن الحرب قد انتهت ؟
- هل معك نقود ؟
أبوك سيموت .
- أهواك واتمنى لو أنساك .
- الحرب يا سيدي ..
البلاد مهدّدة بمجاعة .. حاجة تجن .. أين القمح ؟ أين الزرع واللحم ؟

- زيادة السكان .

- الحرب .

- السرقة .

- الضمير .

وقف الكمساري : طنطا ..

راحة .. لمدة عشر دقائق .

اقتربت أم محمد من السائق وهي تخطو ببطء .. حقيبتي خلف العربة .. نزل السائق مد يديه .. فتح الغطاء .. عاد للخلف .. نظر بدهشة للمرأة .. صاحت المرأة ما هذا ؟ صرخ الكمساري والسائق معًا :

يا هووه

اقترب الركاب جميعًا من العربة وجدوا جثة ممددة أمامهم في كفن .

- ما هذا ؟

قال السائق : وجدت هذه الجثة .. نظر حوله لم يجد المرأة العجوز .

كانت جثة الوطن أم جثة المرأة .. أم جثة من ؟!

اجتمع الناس .. الشرطة .. الصحف .. الكل دفن الجثة والكل صمت .. لا تعليق على ما حدث !!

بعض ما تيسر من صور القهر

الراهبة

أمك الأشجار وأبوك الطير وأنت بين أغصان الخسّة تتنفس الشرف الذبيح على ثدي النساء الحالمات بالفراش الدافئ في شتاء العمر .

من أنت عين الراهبة في شهوة العمر تختاره من بين مئات الرجال المندسين في قاع الزمن المسلوب من تحت إبط الخسّة .

هل أنت شجاع

عصر الشجاعة فيه جنون .. يا سفير الجوعى دغدغت ثدي المراهقات والمومسات والنساء المختبئات في صدر الخطيئة .

مدت يدها .. سحبت من يديه ورقة وقالت :

– من هنا طريق صالة الموسيقى .

– أين ؟

راحت أنفاسها الملتهبة تسلع شفتيها .. راحت يداها القلقة نحوه .. دخلت في دائرة الذنب الذي طالما راحت تسمعه في الكنيسة ، إنه الشيطان .. هل هذا الصعلوك هو الشيطان .. راحت يده المذنبة للأبد .. تمتد نحوها راغبة في أن تدخل دائرة النور ..

في شوارع الأنبياء يموت الشهداء وأنا صعلوك .. حرفتي الكلمة والصعلكة والنساء .. يلعقني الطريق وتنامين يا قدستي على أرجوحة الذنب .. وأرجوحة التوبة فنامي على صدري أتحسّس أنفاسك الملتهبة وهأنذا أمامك ..

راحت توقفه بإشارة من يدها ..

أوقف سيارته المتعبة الكسولة التي اشتراها بالتقسيط .. دخلت الراهبة مسرعة .. خائفة .. لم تتكلّم . راح يدوس الطريق بقدميه منطلقًا في عهد غير شريف ..

– إلى أين ؟

لم يجبها .

والخليج المجنون .. والعصر المخبول .. والفصل المأفون .. والإنسان معصوب العينين .. إنه لفي خندق الضياع وخندق الجياع .

راحت أمواج الخليج في رحلة الجذر تقترب من الشاطئ والسيارة المتعبة لا تعرف أي شيء .. لم تصرخ .. لم تدر أن اللحظة تباع في سوق الأيام ساخرة بالإنسان راحت تغرق في أحضانه ..

راح يغرق في أحضانها .

في الصباح .. كانت الشمس تغسل زجاج السيارة فحاول أن يتحرّك بينما سيارة الشرطة تقترب منهما ..

هامش :

على باب حجرتها علّقت صورة لقسّيس ما مجهول واحتفظت بين وسادتها بصورة لرجل لا تعرفه ..

على حوائط حجرته علّق صور النساء العاريات دون أن يعرفهم ولا يعرف أسماءهم وعلى الحائط علّق سورة القهر ليتلوها في صلاة الأحد..

طردتها الكنيسة .. طُرد من العمل ..

آية الصفر :

أنا المواطن صفر في مدينة الملايين .

بصق في وجه الرجل الملايين . . صارت البصقة بحيرة كدت أغرق . . لا أجيد العوم ولا البحيرات الصناعية أعرفها . . أطلقت عليه سهام معرفتي تقلص الرجل الملايين إلى قنفد . .

اختفت البحيرة .

أنا صفر في الملايين .

بصق علي رأس الرجل الملايين صارت البصقة نهراً . . جرفني التيار . . حاولت أن أقف على قدمي أو أرجع إلى الشاطئ . . لم أعرف . . أطلقت سهام إرادتي . . صار الرجل الملايين شبكة واختفى النهر . .

أنا صفر الملايين .

لكنني لن أفعل شيئًا حتى الآن . . تحدفني آلة تلقي بي في سلة مهملة . . نظر رجل الملايين إلى زوجته . . نهشت في رأسه فكرة بناء جسر يكفي لمرور الطائرات النفاثة عليه . .

أجابت زوجته :

– يا حبيبي نحن في عصر الطائرات النفّاثة فيه ليست في عداد السيارات .

نظر إليّ . . أخذ يمحوني أنا الصفر «بالمحاية» لكنني تشبّثت في الورقة حتى مزّقها . . ألقانا في القمامة أنا والورقة . . حملنا عمال البلدية . . ألقونا في المستودع خارج حدود المدينة . . جريت في الأرض . . حملت بذرة زهرة ودفنت في الأعماق . . صرت زهرة . . مر عام وعام . .

مر رجل الملايين صدفة . . شاهد مليون شجرة ورد . . وقف . . عرفني إنني في الأصل مجرّد صفر . . حاول أن يقطع الزهرة . . لكن الشوك هذه المرة جعله ينزف دمًا نقطة نقطة . . صار الرجل الملايين نقطةً . . وصار الصفر زهرةً . .

عـرت فخذها في حـفلة وهي تتـحدّث .. فـتحت المذياع .. قـبّلت الأوراق .. نامت في الحفلة عامًا واستيقظت .. صار كل المدعوين تماثيل من الشمع .. نظرت حولها وجدت الأرنب الصغير .. الأرنب صفر .. هو وحـده في البـيت .. جـرت .. حـاولت أن تمسكه .. أمـسكتـه .. جاءت بـالسكين كي تذبحـه .. ذبحـتـه .. وحـينما نزل من رقبتـه الدم أخذت تدهن به كل التـماثيـل .. صـارت التـماثيل بـشـرًا ثم تحـولوا إلى حيوانات شرسة .

أكلوا جسد الأرنب صفر .

بعد شهر ..

صـرخت كل الحيـوانات .. العفن في بطونها .. ماذا تفعل .. العفن في بطونها .. ماذا تفعل ؟

جـرت إلي الأشـجـار .. إلى البـحـر .. طعنت الشـمـس الجـريئـة بطونـهم .. خـرج من بطن كل حـيـوان شـرس الأرنب صـفـر .. صـارت الأرانب في ضوء الشمس رجالاً كل منهم بدا صفرًا ..

الســؤال

فارس البلاد يغوص في أعماق النهر حاملاً نايًا .. يعزف عليه فترقص الأمواج والأسماك .. وعلى الشاطئ حصانه الأشقر تداعب حوافره حصاة ناعمة .. وقنينة الاخضرار ترسم لوحة شعرية .. بينما ..

«بينما عروس البحر تحاول أن تجذب الفارس إلى الماء .. كم حاولت هذه اللعينة أن تجذبه إلى الأعماق .. كي يغرف ويموت .. كانت» ..

وكانت بهية تحمل الخبز الساخن في يديها هاتفة :

- ارجع يا ياسين .. ارجع يا ياسين ..

«في القديم كان النهر جدولاً وكانت الأرض الخضراء بحيرة راكدة .. يسكنها الذباب والحشرات والجراثيم .. الآن صارت جزءًا من الجنة بعد أن أصلحها ياسين وزرعها وزيّنها وحماها من الريح والإعصار» ..

سار الفارس خطوة .. ثم خطوة .. صرخت بهية :

- ارجع يا ياسين فالنهر ليس له صديق والجنية لعينة ..

عروس البحر تضحك في سخرية .. إن بهية لم ترها بعينيها .. لكنها شعرت بها ..

لم يسمع ياسين صوت بهية .. بل سمع صوت المجهول وبرقت في عينيه اللتين تلونتا بلون الحزن والماء الفضي صورة الجمال المفقود ..

«كان يريد أن يهرب من كل شيء حتى لا يواجه حزنه على الأرض.. وعلى الخديعة والهزيمة» ..

عد يا ياسين .. عد يا حبيبي ..

«بهية على شواطئ الخوف . . ترى الموت قريبًا لكن لا يراها . . كانت ترى أن الخلاص مستحل . . وأن ياسين صار ضحية . . صار ضحية» .
«منذ عاد من حرب أكتوبر (تشرين) وهو يتقيأ . . لم يغن للعصافير . . كان يجلس على الشاطئ يعزف للنهر كي يفيق ويحلم بأن أعماق النهر تثور وأن الحياة تستيقظ» .
«كنا يا بهية نعرف أن المأساة تكمن في العبور وعبرنا النهر . . المشكلة يا بهية ليست في العبور» !
«نظرت له . . وجدت صورة المسيح وصورة الأنبياء المذكورين في الإنجيل والتوراة والزبور والقرآن والتاريخ والذين لم يذكروا . . شريطًا طويلاً يمر في عينيه البلهاوين . راحت عيناها المتعطشتان للمعرفة تحاولان تفسير المغزى . . كلما سألت نفسها عن نفسها . . عن ياسين . . عن السؤال» .
«هنا على شاطئ السويس كان جدي يا بهية يزرع الأرض . . كنا نبيع الحبوب والحب ، نمضغ القهر والذل ونشرب ماء النهر الممزوج بالدم . . كانت الشواطئ يا بهية مثل البركان لا يهدأ . . كل شيء أصبح ملوثًا . . الماء . . الموج . . السحاب . . حتى العصافير التي كنت أعزف لها وأشاهدها بعيني . . أسمع أن عروس البحر تخرج كل مساء لتأكل صيادًا . . هجر الصيادون البحر وأصبحوا تجارًا في المنسوجات والأشياء الأجنبية . . وصاروا سماسرة ، وهذه المدينة التي أصبحت ساحلية تخفي مئات اللصوص . . الشط بريء من الصيادين . . والأرض بريئة من الفلاحين الذين هاجروا . . والنهر بريء مني إذا تركته ، وأنا بريء من أعماق النهر إذا لم تساعديني . . آه يا بهية» .
«واليوم يا ياسين . . هل نسيت أن عروس البحر تدبّر لك مؤامرة كي تقضي عليك . . هل نسيت يا حبيبي . . ماذا حدث ؟ حاول أن تفيق . . أنت في وسط النهر يا ياسين . . أنت في وسط المؤامرة» . .

- عد يا ياسين .. عد يا ياسين ..

لم يسمع صوتها .. لكن صوتها راح يهز الأعماق .. أعماق النهر وحصاة الشاطئ .. بدأت تتحرك الأعماق وبدأ ياسين يفيق .. بدأ يفيق حينما شاهد أعماق النهر تطفو إلى أعلى .. تسطع .. وجد قدميه فجأة في الأعماق .. لم يصدّق .. أنفاسه تتبخر .. يلهث .. لم يصدّق أنها تتحرّك وأنها تصعد وأن الماء لن يجذبه ولن يغرق ..

- بهية .. يا بهية ..

كان ياسين يصيح :

- بهية .. لقد تحركت أعماق النهر .. وعروس البحر لن تخدعني .. لن تخدعنا بعد اليوم .. يا بهية .. إليّ بحصاني الأشقر ..

أخذ الحصان يجري تجاه النهر وصعد ياسين فوق الحصان ومعه كل صخور الشط وحصاة الشواطئ .. وبهية تصرخ :

- اذهب يا ياسين إلى الأعماق .. ائت لي برأس عروس البحر وأنا في الانتظار .. أنا هنا كي أحمي الاخضرار .. أحمي اللون الأخضر .. علي اذهب ..

لقطات من غوث الأنهار

اللقطة الأولى :

- لم يعد في المدينة إلاّ اللون الرمادي يلوّن كل شيء .

اللقطة الثانية :

لمن أتكلم اليوم
لا يوجد أخيار
إن الأرض لأولئك الذين يرتكبون الإثم .

اللقطة الثالثة :

إني أتبرّأ من جيلي .. إني أتبرّأ من جيل يفاوض .. يساوم .. يهزم جيلاً ويغطّي عينيه بالأكاذيب ..

اللقطة الرابعة :

احترقت داخل حجرة التحميض كل الصور الجميلة ...

اللقطة الخامسة :

الاسم : محمد نعيم
العمر : أربعون
العلم : كان ورديًا .. صار حطامًا في داخل الأخطار
سار محمد نعيم ليس لديه أي شيء يقوله لأحد ، همس .. نبش ..

صعد إلى مكتبه .. تأبّط ذراع المقعد خشية أن يطرد من العمل فوق أكتاف المحاباة والتدليس والنقل والفتل والأخبار والهمس في أذن الكبار عن فلان وعلان ، صار محمد نعيم رئيسًا لهذا المكان وعلّق خلفه صورتين لرجلين ، وقال إن العالم يوم لك ويوم لآخر وعلى الفرد أن يكون موائمًا ومواكبًا لكل الأحداث ، صرخ وهو يدق الجرس وينظر إلى مكتبه : لن أسمح لأحد أن يطفئ سيجارته في مطفأة مكتبي ..

اللقطة السادسة :

نام النهر على الوسادة الوردية وتكسّلت سميرة باللقاء وعلى عتبات الماء .. ووقفت تنتظر زوجها القائد ..

– هل عدت يا محمد ؟

– نعم .

نام .. ألقى بجسده المكدود على السرير .. لم ينبث بحركة .. بكلمة .. وهي راحت تخلع ملابسه .. تحاول أن تحرّكه إليها .. إلى الإحساس بها .. لم يتحرك .. كل ما هويته كد مكدود .. ظلت تهمس في أذنه .. استيقظ .. تحركت قدماه ببطء شديد وهو ينظر لها .. ثم أغمضه النعاس والقلم الأحمر ملقي على الأرض .. أمسكت القلم .. وضعته على الرف الموجود فوق السرير .. وأخذ الشخير يخرج من فمه ..

بجواره على السرير .. أخذت تهمس له وهي تحرّك يدها على صدره .

– حماده .. محمد ..

لم يتكلم .. هاهو تتحرّك شفتاه ..

– أنا عايز الدرجة الأولى .. عايز أبقى مدير ..

– بكرة حتبقى أعظم راجل في الدنيا .

– أنا عايز أبقى مدير كل حاجة فيها ثقافة في البلد دي واسيب المينا .

- إن شاء الله .. بقولك إيه ..

هدهدت أحلامه .. استغرق في النوم بينما هي تروح وتجيء في الغرفة .. أمسكت كتاباً وأخذت تقرأ ..

اللقطة السابعة :

نهار كان .. وقف السجان في منتصف السجن يصيح : محمد نعيم، إفراج النهاردة ..

عندما أتت أميرة البلاد أعطوه آلاف الدنانير والدراهم كي يزيّن المكان وأن يصبح قطعة من جنة النعمان إلاّ أن صاحبنا فضّل أن يسرق نصف المبلغ والقانون يحمي اللصوص ، واللص يتساوى مع أصحاب المناصب والجاه والكل يعرف هذا الوقت ليس فيه حساب ، قد ينقص .. قد يزداد إلاّ أن محمد نعيم .. سرق وبرزت السرقات حين سقطت سقوف الديار بعد زيارة أمير البلاد بيوم .. وتساءل الشعب : كيف وأين ومتى ووين راحت الفلوس يا منحوس ؟ ومن أين لك هذا ؟

حيئذ تحرّك القانون الكسلان ببطء كي يأخذ العقاب وسجن ستة شهور .. وها هو يخرج إلي النور ..

اللقطة الثامنة :

أتى الفرمان .. ونقشوا على الأبواب والجدران .. في كل الحارات .. تم تعيين محمد نعيم .. مساعداً لأمير البلاد ولوّنت كل الجرائد .. فيا أهل مدينة العميان كل اللي فات مات والماضي ألقينا عليه التراب وصنعنا لكم الحل .. والحل هو أننا نتمسّك بالصبر وأن تتوجّهوا إلى الشيخ الأستاذ محمد نعيم وتباركوا له في أسعد الأوقات .

اللقطة التاسعة :

صورة كبيرة في منازل شخصيات كبيرة .. ممنوع أن نعلن عنها أو نذكر أي اسم لها .. إنها صورة محمد نعيم .. في كل البيوت ..

رجل خان بعد السجن .. وعاد إلى كل البيوت .. فارس البلاد .

بتا - حتب - رع - آمون

قبل بدء اللحظة : «بتاح»

أمه صرخت في وجهه لا تخرج أيها الملعون حتى لا يأكلك «الغول» لقد تركه فرعون يسير في المدينة في أي وقت يشاء .. خرج الغول أمس مساءً وأكل امرأة ، وأول أمس خرج ظهرًا أكل فلاحًا وطفلاً ، وأول أول أمس خرج صباحًا أكل عاملاً يصنع الأواني ، والأسبوع الماضي خرج في العصر أكل شيخًا هرمًا وامرأة .. وجرت الناس من حوله .. نظر لأمه .. للماء الذي في الإناء والحطب الذي يشتعل تحت الإناء والبطن الخاوية .. نظر لقدمه المتسخة وعين أمه العجوز والمنزل الذي أصبح خاليًا من الطعام ..

بدء اللحظة : «حتب»

خرج .. وقف أمام باب الكوخ .. جرت أمه خلفه .. لا تخرج .. صاح في وجهها : لن أتحرك .. لا تخافي .. وقف ليرى كل الأكواخ قد أغلقت أبوابها ..

لقد ترك فرعون «الغول» يأكل في البشر .. يسير .. يفعل ما يشاء .. ترك الغول وانتشر الخوف وانتشر الرعب .. وانتشر الموت وانتشر الفزع ولا صوت يعلو .. ولا صوت يهبط .. وكل يتحسس أفراد أسرته ويطمئن على عددهم ولم يعد هناك إلا الفزع وأي فزع .. لمح من بعيد المنادي يحمل «طبلة كبرى» ويصيح :

يا أهل المدينة .. اليوم فرعون يخبركم احتفالاً بعيد ميلاده أنه

حبس «الغول» .. اخرجوا بأمان واحتفلوا بالعيد ..

خرجت اللحوم البشرية والأفواه والأذرع والأرجل ، تجري الأطفال والرجال والنساء .. الكل يجري إلى سوق المدينة .. عيد ميلاد فرعون .. عيد ميلادهم .. جرى هو وأمه خلفه .. قالت أمه : أعرفك يا غبي لن تحضر الطعام ..

اللحظة : «ع»

وقف على صخرة ليُرى في السوق وهو ينادي في وسط الجموع .. لقد آن الأوان لنذهب في عيد ميلاد فرعون نطالبه أن يقتل «الغول» الذي تركه يأكل الأطفال والنساء والشيوخ .

صاح أحدهم : نقبِّل يد فرعون أولاً ..

صاخ آخر : نشكره ..

صاحت الأصوات : يحيا فرعون حاكم مصر ..

دام عيد ميلاده ..

عيد ميلاده عيد ميلاد بطوننا ..

دعوا فرعون يسعد ..

قال الفتى وأنفاسه تتعثّر من الجوع :

– غداً ليس عيد ميلاد ، وسيخرج الغول وستغلق الأسواق وسيصبح الجوع مرة ثانية .

قال آخر : سنختزن الطعام ..

قال وهو يعلو بصوته : والفلاحون كيف يخرجون للحقول ؟ لم يخرج الفلاحون للحقول منذ فترة .. اكتشفوا فجأة أن السوق غارق في الطعام وأنهم بلا طعام .. لذا وقفوا حوله ينظرون والصمت يخيِّم عليهم .. نظر الفتى إليهم .. وعيناه تعطف عليهم .. وعيناه تحبهم مثل طيور النوارس .. وحبات العرق فوق جبينهم .. صاح :

- هيا معي .. إلى الأمام ..

«سار خلفه مئات ومئات من النساء والأطفال والرجال إلى قصر فرعون الأبيض الكبير .. يصيح فيهم : أنتم معي .. صيحوا بصوت عال : اقتل «الغول» . سار خلفه من كل الحارات بشر كالبحر والمئات من الحرّاس جروا داخل القصر .. يصيحون خوفًا :

- يا ملك الملوك يا فرعون .. الناس على الباب ..

خرج الحارس ونظر من الشرفة وقال للجماهير والناس :

- فرعون قادم .. خرج الملك فرعون .. خرج .. نظر إلى الجماهير ..

آمون :

نظر فرعون من فوق جدار السور لم يجد سوى الفتى .. ابتسم فرعون ..

- ماذا تريد أنت ؟

نظر الفتى إليه صائحًا : جئت مع هؤلاء الناس أسألك .. نظر خلفه لم يجد أحدًا .. قال : أين الناس .. لقد هربوا عندما شاهدوا فرعون .. قال الفتى :

- جئت أشكر سيادتكم ..

نظر خلفه لم يجد أحدًا سواه ..

- أطلب من سيادتكم وجلالتكم وفخامتكم باسم كل الشعب أن تخرج الغول اليوم ليتنزّه وأن تشتري غولاً جديدًا لنا بمناسبة عيد ميلادك ليكون في المدينة غولان ..

ضحك فرعون ..

سقط الفتى ..

جرى الحرّاس إلى جثة الفتى ..

قال فرعون :

ماذا حدث له ؟
قال الحارس :
لقد مات ..
عليه بركات آمون ..

الخـلق

في اليوم الأول :

خلق الله الفن والحب وآدم وحواء.

أنبت الفن والموسيقى والشعر والجمال .. وعمّر الكون ..

في اليوم الثاني :

قتل قابيل .. هابيل ، وانتشرت الجريمة والفساد وارتدى الرجال الأقنعة والنسوة بعض منهن ارتدين شوارب وجلسن فوق الكواكب والتلال والجبال ، والرجال المخنّثون صاروا عمالقة وصار الأنذال كباراً .. وصار المخلصون رعاعًا ..

في اليوم الثالث :

جاء الطوفان .. أغرق كل شيء .. أغرق كل شيء .. ما عدا طفلاً صغيراً سُمي زين العابدين .. كان يزرع زهرة على تل ويغني أغنية بيضاء الملامح .

في اليوم الرابع :

عصر الشجر والأنهار كان .. وكانت الحرية ، وقسّم الإنسان الكون إلى سادة وعبيد .. وصار زين العابدين جداً لأسرة :

٢٥ من أولاد وأحفاد .

٥٠ من المظلومين من العباد .

١٠٠ شخص طعنوا .

١٠٠٠ رزق قُطع .

١٠٠٠٠٠ إشاعة ضد عباد الله الطائعين .

+١ حسنة على فقير من باب التفاخر .

في اليوم الخامس :

استشرى الشر في الأرض والضغينة والكراهية والحقد المأفون والكل يسرق لحم الكل ، والفقراء والأغنياء في لعبة المجتمع .. دوامة كبرى .. رجال بلا رجولة ، ونساء بلا حياء ونهر من العذاب يغرق فيه الجميع ..

في اليوم السادس :

أخذ الرب راحة ..

في اليوم السابع :

ترك الرب الأرض وسكن في السماء السابعة .. وحدّد يوم القيامة وساعة الحساب وترك البشر .. وترك زين العابدين ..

الكويت ١٩٩٨

البحر

تصبّب العرق على جبين الطبيب وراحت أصابعه تتلمّس الأحشاء .. وفي الأفق البعيد حيث يصافح الموت الحياة .. تتعانق أنفاس المرأة وصراخها بالانهيار .. مد الطبيب يديه .. نظرت إليه الممرضة ، نظر إلى من حوله .. التفّوا جميعًا حول المرأة .. هذه أقدام الطفل بين يديه .. تخرج من الأم ، وأخيراً ها هي تخرج الأقدام متشابكة وكاملة ، يضع قدمًا في بطن أمه وكأنه يحمل غرور الدنيا وكبرها وكأن أبوه ليس عبد الراضي الصياد الفقير ، وكأن أمه ليست راضية الهبلة كما كانوا يطلقون عليها في الحارة لأنها تتحدّث كثيرًا في كل شيء وعن أي شيء بلا معنى .. وفي خارج المستشفى بعيدًا جلس عبد الراضي كما قالوا له :

- ممنوع دخولك المستشفى أو غرفة العمليات .

في البحر يا عبد الراضي كنت تتصارع مع الموت .. دائمًا تبحث عن الحوت الكبير الذي يحكي عنه الصيادون لكي تصيده ، ولكنك لم تجده أبدًا .. كنت تبحث عن عروس البحر الحلوة كي تراها ولكنك كنت ترجع دائمًا تضرب مجاديفك السكون في الماء وتلقي الأسماك الصغيرة أمامك في شبكتك المحدودة القديمة ..

أخرج عبد الراضي سيجارة وأعطاها لحارس المستشفى .. ودخل .. خرج الطفل من بطن أمه .. وقف الطبيب مشدوهًا .. طفل بلا رأس .. يتحرّك عبد الراضي مطأطئ الرأس بين الممرات يسأل عن غرفة العمليات .. يتحرّك الطفل بلا رأس ..

– ها هو يروح ويجيء على الشط .. قد كبر .
– فلح الطبيب معه .. أعطاه الدواء فظهرت له رأس لكنها صغيرة.
– ها هو يخرج من الماء بمركبه الصغير ..
إنه قادم إلينا ..

جاء حميده إلى الصيادين مبتسمًا وقد برزت رأسه الصغيرة وكأنها تتحرّك .. تبحث عن شيء .. قال أحدهم له :

– لماذا تأخرّت في البحر ؟
– كنت أبحث عن الحوت أو عروس البحر ..

قال الرجل الثاني :

– مثل أبيك أنت .

مات عبد الراضي منذ سنوات .. أنفق العمر في البحث عن عروس البحر وعن الحوت .. لم يجدهما إلاّ في قصة الصيادين الأقدمين .. وحميده الابن يحاول برأسه الصغيرة أن يجد الحوت أو عروس البحر ..

غابت الشمس، سار الصيادون، وظل حميده جالسًا يتأمل البحر .. سار بمركبه ليبدأ البحث .. القارب الصغير في البحر .. إلى البحر .. من البحر .. للبحر حياة .. لماذا لا يظهر الحوت .. المجداف .. المجداف في يدي والشبك القديم والصمت والمراكب التي قام صيادوها على الشاطئ وأنت قلعة أدور حولك .. وفجأة سمع صوتًا يشق الماء .. ترى هل هو صوت شرطة الميناء والسواحل ؟ .. ترى هذا ؟ .. التفت حميده .. نظر بدهشة .. وجد الحوت .. لم يعد هناك مجال للتفكير .. ها هو الحوت أمامه ...

وتدور الأمواج والبحر والقارب والشمس، وحميده يصارع الموج .. والليل يصارع الصباح، والأيدي تصارع الأرجل .. وتبقى في النهاية رأس حميده داخل بطن الحوت وجسده في القارب ويداه تجدّف حتى وصل إلى الشاطئ .. والجسد بلا رأس واليدان تتحرّكان على المجدافين ..

أبوك .. أبوك عبد الراضي الصياد ..

أمك .. أمك راضية الهبلة ..

والطبيب .. الطبيب لم يحضر إلاّ بعد مشقّة .. ونظر إليك .. أعطاك الحقنة كي تظهر رأسك مرة أخرى .. أعطاك دواء الحرية .. لكن الرأس الجديد صار صغيراً أصغر مما كان .. وتسير يا حميده في الطرقات تحمل مشقّة أيامك المهزومة .. ولكنك سعيد رغم كل شيء .. ها هي ليلة عرسك .. وقفت راضية أمام الحارة ترقص .. مزيكة حسب الله .. الموسيقى تعزف والصيادون حول الحلبة يرقصون .. وأنت تخجل من رأسك المتواضع .. بجوار العروس شوق .. وها هو البحر بعد الزفاف شهر العسل .. صاح أحد الصيادين لحميده وهو في مركبه الصغير :

– مبروك لقد مر شهر العسل ..

– مر شهر العسل .. نهنّئك ..

عروسة البحر .. لديها أموال الدنيا .. جواهر العالم .. لديها نقوش ومجوهرات .. ابنة ملك البحار .. هل تخرج لتعطيني رأسًا كبيرة ؟ تعطيني تاجًا أصبح به ملك بحار الدنيا السبعة ؟ ولكن ما ذنب زوجتي ؟ ما ذنبها ؟ ليس لديها أي ذنب !!

وها هو صوت الماء يشق لتخرج أمامه عرس البحر .. ها هو يدور في البحر .. ها هو يجد نفسه يحمل مجدافه ليصارع به عروس البحر .. وسوف يرفض أن يلقي بنفسه في أحضان عروس البحر .. البحر يشدّه للأعماق ..

النهاية .. حمل الصيادون جثمانه إلى الشاطئ .. لم يعد له رأس .. لم تعد راضية الهبلة تعرف مكان الطبيب .. لم يعد لأشواق زوجته وهي في حلم زفافها .. كانت تقف على الميناء ..

منذ تسعة شهور وأنت واقفة يا شوق .. كان مخلصًا .. كان وكان ولم يعد في الإمكان أن يرجع ما كان .. وعودي يا امرأة إلى بيتك

المغطى بالوحدة .. لقد آن الأوان ..

في غرفة العمليات وقف الطبيب مشدوهًا .. أخرجوا من بطن شوق رأسًا بلا جسد .. حملها الطبيب ضاحكًا .. صائحًا : أدخلوا رجال الصحافة .

تفضلوا .. أحضروا الرأس .

قامت شوق من على سرير المستشفى تبكي .. ورأس الطفل في متحف كلية الطب .. مغطاة بدورق زجاجي ..

كانت شوق تخرج من باب المستشفى .. بينما راح طلبة أولى طب يمرون أمام الدورق ولم يدر أحد أن رأس الطفل كانت تتكلم ولا أحد يسمع !!

الكويت ١٩٨٣

المـؤلف

السيد حافظ

- كاتب ، صحفي ، سيناريست .
- من مواليد ١٩٤٨ - محافظة البحيرة - جمهورية مصر العربية .
- ليسانس فلسفة واجتماع -كلية التربية - جامعة الإسكندرية - عام ١٩٧٣ .
- عضو اتحاد الكتَّاب المصريين - عضو اتحاد الكتَّاب العرب .
- عضو نقابة المهن التمثيلية المصرية - عضو نقابة المهن السينمائية المصرية .
- مدير قطاع الدراما بالثقافة الجماهيرية بالإسكندرية (١٩٧٤ - ١٩٧٦) .
- حاصل على الجائزة الأولى في التأليف المسرحي بمصر عام ١٩٧٠ .
- حاصل على جائزة أحسن مؤلف لعمل مسرحي موجّه للأطفال في الكويت عن مسرحية (سندريلا) عام ١٩٧٣ .
- رئيس تحرير مجلة «رؤيا» ، ومدير مركز الوطن العربي للنشر والإعلام «رؤيا» لمدة خمس سنوات (سابقًا) .
- محرّر بجريدة السياسة الكويتية لمدة ٧ سنوات (سابقًا) .
- كاتب وصحفي متفرّغ حاليًا .. حصل على منحة التفرُّغ من وزارة الثقافة المصرية في عام ١٩٩٢ ، ١٩٩٣ .
- عرضت له العديد من مسرحياته في مصر والبلاد العربية ، كما قُدِّمت له العديد من المسلسلات الإذاعية والتلفزيونية .

صدر للمؤلف :

مسرحيات للكبار :

- **كبرياء التفاهة في بلاد اللا معنى** ، كتابات معاصرة ، ١٩٧٠ .
  طبعة ثانية ، مركز رؤيا ، ١٩٩١ .
- **الطبول الخرساء في الأودية الزرقاء** ، سلسلة أدب الجماهير ، ١٩٧١ .
- **سيمفونية الحب** (مجموعة قصصية) ، وزارة الإعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- **حبيبتي أنا مسافر** (مسرحية) ، أدب الجماهير ، ١٩٧٩ .
- **هم كما هم ولكنهم ليس هم الزعاليك** (مسرحية) ، الكويت ، ١٩٨٠ .
- **ظهور واختفاء أبي ذر الغفاري** (مسرحية) ، الكويت ، ١٩٨١ .
- **حبيبتي أميرة السينما** (مسرحية) ، مركز الوطن العربي ، ١٩٨٢ .
- **حكاية الفلاح عبد المطيع** (مسرحية) ، الكويت ، ١٩٨٢ .

- **يا زمن الكلمة : الكذب - الخوف - الموت** ، مركز الوطن العربي ، ١٩٨٧ .
- **٦ رجال في معتقل** (طبعة ثالثة) ، مركز الوطن العربي ، ١٩٨٩ .
- **سيمفونية الحب** (طبعة ثانية) ، مركز رؤيا ، ١٩٩١ .
- **ستريف القرن العشرين** ، مركز رؤيا ، ١٩٩١ .
- **٩ مسرحيات تجريبية** ، مركز رؤيا ، ١٩٩٢ .
- **الأشجار تنحني أحيانًا** ، دار العربي ، ١٩٩٢ .
- **رحلات من بسبوسة** (مسرحية) ، دار العربي ، ١٩٩٤ .
- **ملك الزبالة** (مسرحية) ، دار العربي ، ١٩٩٥ .
  طبعة ثانية ، وزارة الثقافة المصرية ، ٢٠٠١ .
- **إشاعة** (٦ مسرحيات من فصل واحد) ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٥ .
- **وسام من الرئيس** (مسرحية) ، دار العربي ، ١٩٩٧ .
- **مسافرون بلا هوية** ، دار العربي ، ١٩٩٧ .
- **عبد الله النديم** (مسرحية) ، المجلس الأعلى للثقافة ، ١٩٩٧ .
- **قراقوش والأراجوز** (مسرحية) ، دار العربي ، ١٩٩٨ .
  طبعة ثانية ، إتحاد الكُتَّاب ومركز الحضارة العربية ، ٢٠٠٠ .

مسرح الطفل :

- **سندس** ، دار آزال ، لبنان ، ١٩٨٧ .
- **علي بابا** ، دار آزال ، لبنان ، ١٩٨٧ .
- **عنتر بن شداد** ، دار آزال ، لبنان ، ١٩٨٧ .
- **فرسان بني هلال** ، دار آزال ، لبنان ، ١٩٨٧ .
- **أبو زيد الهلالي** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ .
- **قميص السعادة** ، دار الثقافة الجديدة ، ١٩٩٥ .
- **أولاد جحا** ، دار العربي ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
- **سندريلا** ، دار العربي ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
- **قطر الندى** ، دار العربي ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
- **حب الرمّان** ، دار العربي ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
- **الوحش العجيب** ، دار العربي ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
- **سندريلا والأمير** ، دار العربي ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
- **نتوسة والعم كمال** ، دار العربي ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
- **حمدان ومشمشة** ، دار العربي ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

المحتويات

من قائمة الإصدارات الأدبية

العنوان	المؤلف	العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد	المتعبون	جمعة محمد جمعة
حمدان طليقا	أحمد عمر شاهين	دموع إيزيس	حسنى لبيب
الهاجس	أحمد بدران	بالمقلوب	د. حمدى حمودة
ملاعيب الأكابر	أحمد الشيخ	أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
سريب	أحمد الفيتورى	الحب والتتار	خالد عمر بن قفه
ظل باب	أحمد محمد حميدة	أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن قفه
وقائع غرق السفينة	إدريس علي	يومية هروب	خيرى عبد الجواد
واحد ضد الجميع	إدريس علي	مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
المبعدون	إدريس علي	العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
طريق النسر	إدوار الخراط	حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
صخور السماء	إدوار الخراط	حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط	حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط	الحدود	رأفت سليم
يقين العطش	إدوار الخراط	الطريق والعاصفة	رأفت سليم
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط	في لهيب الشمس	رأفت سليم
متى تتزوجنى ؟!	أشرف خليل	اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
الهيش	أشرف العوضى	أنا ونورا وماعت	رفقي بدوي
حذاء السيد المنسى	أشرف العوضى	سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
عندما تبيض الديوك	أمجد صابر	شجرة الخلد	سعد القرش
لا أحد يحبك	أماني فهمى	تائهون فى الحياة	سعدية البياتى
همس العاشقين	أمين بكير	شهقة	سعيد بكر
حكايات من دفاتر النسوان	أمين بكير	حبيبى يا ناس	سليمان كابو
ألم يخلقها الله امرأة	أمين العزب	لرجوحة	سمير الفيل
مأساة أسرة	أمين العزب	ظل الحجرة	سمير الفيل
أشياء خاصة جداً	أمينة العمادى	قطار الساعة ١٢	السيد الشوربجى
الخيول الشاردة	بهى الدين عوض	أيام هند	سيد الوكيل
قبل وبعد	توفيق عبد الرحمن	كف مريم	سعيد سالم
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطانى	سفر الموت	شاطبى يوسف ميخائيل
مطرية الغروب	جمال الغيطانى	الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د. جمال التلاوي	أيام الغربة الأخيرة	صالح سعد
الرقص على حافة الجرح	جمال فايز	دردانين	عاشور الطويبى

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد
وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز